محمود درويش

لماذا تركت الحصان وحيداً

الطبعة الثانية



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL - RAYYES
BOOKS

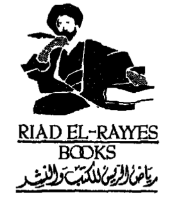


لوحة الغلاف
بريشة الفنان ضياء العزاوي

لماذا تركت الحصان وحيداً

محمود درويش

لماذا تركت الحصان وحيداً



WHY HAVE YOU LEFT THE HORSE ALONE

BY

MAHMOUD DARWISH

First Published in january 1995
2nd Edition Published in September 1996

LONDON - BEIRUT

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1- 85513 263 X

لوحة الغلاف: بريشة الفنان ضياء العزاوي

الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥
الطبعـة الثانيـة: ايلول/ سبتمبر ١٩٩٦

القصائد

IV غرفة للكلام مع النفس

V مطر فوق برج الكنيسة

VI أغلقوا المشهد

إلى ذكرى الغائبين:

جَدّي: حسين

جَدّتي: آمنة

وأَبي: سليم

وإلى الحاضرة:

حورية، أمي

أرى شَبَحي
قادماً من بعيد ...

أُطِلُّ، كَشُرْفة بَيْتٍ، على ما أُريدْ
أُطِلُّ على أَصدقائي وهم يحملون بريدَ
المساء: نبيذاً وخبزاً،
وبعضَ الرواياتِ والأسطواناتْ...

أُطلُّ على نَوْرَسٍ، وعلى شاحنات جُنُودْ
تُغَيِّرُ أَشجارَ هذا المكانْ.

أُطلُّ على كَلْبِ جاري المُهَاجرِ
مِنْ كَنَدا، منذ عامٍ ونصف...

أُطلُّ على اسم «أَبي الطَيِّب المُتَنبِّي»،
المسافر من طبريَّا إلى مصر
فوق حصان النشيدْ

أُطلُّ على الوَرْدَةِ الفارسيَّةِ تصعَدُ
فوق سياج الحديدْ

أُطلُّ، كشُرْفةَ بَيْتٍ، على ما أُريدْ

□

أُطلُّ على شَجَرٍ يحرُسُ الليل من نَفْسِهِ
ويحرس نَوْمَ الذين يُحبُّونني مَيِّتاً...

أُطلُّ على الريح تبحَثُ عن وَطَن الريحِ
في نفسها...

أُطِلُّ على امرأةٍ تَتَشَمَّسُ في نفسها...

أُطلُّ على موكب الأنبياء القُدامى
وهم يَصْعَدُون حُفَاةً إلى أُورشليم
وأَسْأَلُ: هَلْ من نَبيٍّ جديدٍ
لهذا الزمان الجديدْ؟

□

أُطلُّ، كشرفة بيت، على ما أُريدْ

أُطلُّ على صورتي وَهْيَ تهرب من نفسها
إلى السُلَّم الحجريّ، وتحمل منديل أُمّي
وتخفق في الريح: ماذا سيحدث لو عُدْتُ
طفلاً؟ وعدتُ إليكِ... وعدتِ إليَّ

أُطلُّ على جذع زيتونةٍ خبَّأتْ زكريّا
أُطلُّ على المفردات التي انقَرَضَتْ في «لسان العربْ»

أُطلُّ على الفُرْس، والرومِ، والسومريّين،
واللاجئينَ الجُدُدْ...

أُطلُّ على عِقْد إحدى فقيراتِ طاغورَ
تطحنُهُ عَرَبَاتُ الأَمير الوسيمْ...

أُطلُّ على هُدْهُدٍ مُجْهَدٍ من عتاب الملكْ

أُطلُّ على ما وراء الطبيعة:

ماذا سيحدث ... ماذا سيحدث بعد الرماد؟

أُطلُّ على جَسَدي خائفاً من بعيدْ...

أُطلُّ، كَشُرْفَةِ بيتٍ، على ما أُريدْ

□

أُطلُّ على لُغَتي بَعْدَ يَوْمَيْن. يكفي غيابٌ

قليلٌ ليفتَحَ أَشخِيلْيُوسُ البابَ للسِلْمِ،
يكفي
خطابٌ قصير ليُشعل أَنطونيو الحربَ،
تكفي
يَدُ امرأةٍ في يدي
كي أُعانق حُريَّتي
وأَن يبدأ المدُّ والجَزْرُ في جَسَدي من جديدْ
□

أُطلُّ، كشرفة بيْتٍ، على ما أُريدْ

أُطلُّ على شَبَحي
قادماً
من
بعيد...

I
أَيقونات من بلَّوْرِ المكان

في يدي غيمة

أَسْرَجوا الخَيْلَ،
لا يعرفون لماذا،
ولكنَّهُمْ أَسْرَجوا الخيلَ في السهلِ

□

... كان المكانُ مُعَدّاً لِمَوْلِدِهِ: تلَّةً
من رياحين أَجدادِه تتَلَفَّتُ شرقاً وغرباً. وزيتونةً
قُرْبَ زيتونةٍ في المَصَاحف تُعْلي سُطُوحَ اللُغَةْ...
ودخاناً من اللازَوَرْدِ يُؤَثِّثُ هذا النهارَ لمسْأَلةٍ

لا تخصُّ سوى الله. آذارُ طفلُ
الشهور المُدَلَّلُ. آذارُ يندفُ قطناً على شَجَر
اللَوْز. آذارُ يُولِمُ خُبّيزةً لِفناء الكنيسةِ.
آذارُ أَرضٌ لِلَيْلِ السُنُونو، ولامرأةٍ
تَستَعدُّ لصرخَتها في البراري... وتمتدُّ في
شَجَر السنديانْ.

□

يُولَدُ الآنَ طفلٌ،
وصرختُهُ،
في شقوق المكانْ

□

إفترَقْنا على دَرَج البيت. كانوا يقولونَ:
في صرختي حَذَرٌ لا يُلائِمُ طَيْشَ النباتاتِ،
في صرختي مَطَرٌ؛ هل أَسأتُ إلى إخوتي
عندما قلتُ إني رأيتُ ملائكةً يلعبون مع الذئب
في باحة الدار؟ لا أتذكَّرُ

أَسماءَهُمْ. ولا أَتذكَّرُ أَيضاً طريقَتَهُمْ في
الكلام... وفي خفَّة الطيرانْ

أَصدقائي يرفّون ليلاً، ولا يتركونْ
خَلْفَهُمْ أَثَراً. هل أَقولُ لأُمّي الحقيقةَ:
لِيَ إخوةٌ آخرونْ
إخوةٌ يَضَعُونَ على شرفتي قمراً
إخوةٌ ينسجون بإبرتهم معطفَ الأُقحوانْ

□

أَسْرَجُوا الخيلَ،
لا يعرفون لماذا،
ولكنهم أَسرجوا الخيل في آخر الليلِ

□

... سَبْعُ سنابِلَ تكفي لمائدةِ الصَيْفِ.
سَبْعُ سَنَابِلَ بين يديَّ. وفي كل سُنْبُلَةٍ
يُنْبِتُ الحقلُ حقلاً من القمح. كانَ

أَبي يَسْحَبُ الماءَ من بئرِهِ ويقولُ
لَهُ: لا تجفَّ. ويأخذني من يَدِيْ
لأَرى كيف أكبُرُ كالفَرْفَحِينَةِ...
أَمشي على حافَّة البئر: لِيْ قَمَرانْ
واحدٌ في الأعالي
وآخرُ في الماء يسبَحُ ... لِيْ قمرانْ
واثقَيْن، كأسلافهِمْ، من صَوَابِ

□

الشرائع... سَكُّوا حديدَ السيوفِ
محاريثَ. لن يُصْلِحَ السيفُ ما
أَفْسَدَ الصَيْفُ ـ قالوا. وصَلُّوا
طويلاً. وغنّوا مدائحهُمْ للطبيعةِ...
لكنهم أَسرجوا الخيل،
كي يَرْقُصُوا رَقْصَةَ الخيلِ،
في فضَّة الليل...

□

تَجْرَحُني غيمةٌ في يدي: لا

أُريدُ من الأرض أكثَرَ مِنْ
هذه الأرضِ: رائحةِ الهالِ والقَشِّ
بين أَبي والحصانْ.
في يدي غَيْمَةٌ جَرَحَتْني. ولكنني
لا أُريدُ من الشمس أكثرَ
من حَبَّة البرتقال وأكثرَ مِنْ
ذَهَبٍ سال من كلمات الأَذانْ

□

أَسْرَجُوا الخَيْلَ،
لا يعرفون لماذا،
ولكنهُمْ أسرجوا الخيل
في آخر الليل، وانتظروا
شَبَحاً طالعاً من شُقُوق المكانْ...

قُرويُّون، من غَير سُوء..

لم أَكُنْ بَعْدُ أَعرف عاداتِ أُمّي، ولا أَهلَها
عندما جاءتِ الشاحناتُ من البحر. لكنّني
كُنْتُ أَعرفُ رائحةَ التبغ حول عباءة جدّي
ورائحةَ القهوةِ الأبديّة، منذ وُلدتُ
كما يُولَدُ الحَيَوانُ الأليفُ هُنا
دفعةً واحدةً!

٥

نحن أَيضاً لنا صَرْخَةٌ في الهبوط إلى حافَّةِ
الأرضِ. لكننا لا نُخَزِّنُ أَصواتنا
في الجرارِ العتيقةِ. لا نشنق الوَعْلَ
فوق الجدار، ولا ندَّعي مَلَكُوتَ الغبارِ،
وأَحلامُنا لا تُطِلُّ على عِنَبِ الآخرين،
ولا تَكْسِرُ القاعدةْ!

○

لم يكن بعدُ لاسميَ ريشٌ فأقفز أَبعَدَ
بعد الظهيرةِ. كانت حرارةُ إبريلَ مثل
ربابات زوّارنا العابرين تطيِّرنا كالحماماتِ.
لي جَرَسٌ أَوَّلٌ: جاذبيَّةُ أُنثى تراوغني
لأشمَّ الحليبَ على ركبتيها، فأهرب
من لَسْعة المائدةْ!

○

نحن أَيضاً لنا سِرُّنا عندما تقع الشمسُ
عن شجر الحَوْرِ: تخطفُنا رغبةٌ في البكاء

على أَحدٍ مات من أَجل لا شيء ماتَ،
وتجرفنا صَبْوَةٌ لزيارة بابلَ أَو جامعٍ
في دمشقَ، وتذرفُنا دمعةٌ من هديلِ
اليمامات في سيرة الوجع الخالدةْ!

○

قرويُّون، من غير سوءٍ، ولا نَدَمٍ
في الكلام. وأسماؤنا مثل أَيَّامنا تتشابَهُ،
أَسماؤنا لا تدلُّ علينا تماماً. ونَنْدَسُّ
بين حديث الضيوف. لَنَا ما نَقُولُ عَنِ
الأَرض للأَجنبيَّة حين تُطرِّزُ منديلَها ريشةً
ريشةً من فضاء عصافيرنا العائدةْ!

○

لم تكن للمكانِ مساميرُ أَقوى من الزنزلختْ
عندما جاءتِ الشاحناتُ من البحر. كنا
نُهيِّيءُ وجبةَ أَبقارنا في حظائرها، ونرتِّبُ
أَيَّامَنا في خزائن من شُغْلنا اليدويِّ

ونخطب وُدَّ الحصان، ونُومىءُ
للنجمة الشاردةْ.

○

نحن أَيضاً صعدنا إلى الشاحنات. يُسَامِرُنا
لَمَعانُ الزُمُرُّدِ في لَيْلِ زَيْتُونِنا، ونُباحُ
كلابٍ على قَمَرٍ عابرٍ فوق بُرْجِ الكنيسةِ،
لكننا لم نكن خائفين. لأن طفولتنا لم
تجىءْ معنا. واكتفينا بأغنيَّة: سوف نرجع
عمَّا قليل إلى بيتنا... عندما تُفْرِغُ الشاحناتُ
حُمُولَتَها الزائدةْ!

لَيلَة البُوم

ههُنا حاضرٌ لا يلامسُهُ الأمسُ ...
حين وَصَلْنا
إلى آخرِ الشَجَرات انتبهنا إلى أَننا
لم نَعُدْ قادرينَ على الانتباهِ. وحين
التفَتْنَا إلى الشاحنات رأينا الغيابَ
يُكَدِّسُ أَشياءه المُنْتَقَاةَ، وينصبُ
خيمَتَهُ الأبديَّةَ من حولنا...

□

هـهُنا حاضرٌ
لا يلامسه الأمسُ،
ينسَلُّ من شَجَر التوت خيطُ الحرير
حروفاً على دفتر الليل. لا شيءَ
غيرَ الفَراش يُضيء جَسارتَنا في
النُزولِ إلى حُفْرَة الكلمات الغريبةِ:
هل كان هذا الشقيُّ أَبي؟
ربما أَتدبَّرُ أَمْرِي هنا. ربما
أَلِدُ الآن نفسيْ بنفسي،
وأَختارُ لاسمي حروفاً عموديَّةً...

□

هـهُنا حاضرٌ
جالسٌ في خلاء الأواني يُحَدِّقُ
في أَثَر العابرين على قَصَب النهر،
يصقُلُ ناياتِهم بالهواء... لعلَّ الكلام
يشفُّ فنبصر فيه النوافذَ مفتوحةً،
ولعلَّ الزمان يحثُّ الخطى معنا

حاملاً غَدَنَا في حقائبِهِ...

□

ههُنا حاضرٌ
لا زمانَ لَهُ،
لم يَجِدْ أَحَدٌ، ههُنا، أَحداً يتذكّرُ
كيف خرجنا من الباب، ريحاً، وفي
أيِّ وقتٍ وَقَعْنا عن الأمس فانكسَرَ
الأمسُ فوق البلاط شظايا يُرَكِّبها
الآخرون مرايا لِصُورَتِهِمْ بعدنا...

□

ههُنا حاضرٌ
لا مكانَ له،
رُبَّما أَتدبَّر أَمري، وأَصرخ في
ليلة البُوم: هل كان ذاك الشقيُّ
أَبي، كي يُحَمِّلني عبءَ تاريخِهِ؟
ربما أَتغيَّرُ في اسمي، وأَختارُ
ألفاظَ أُمِّي وعاداتها مثلما ينبغي

أن تكون: كَأَنْ تستطيع مُدَاعَبَتي
كُلَّما مسَّ ملحٌ دمي، وكأن تستطيع
معالجتي كلما عَضَّني بلبلٌ في فمي!

□

هـهُنا حاضرٌ
عابرٌ،
هـهُنا علَّقَ الغُرَباءُ بنادِقَهُمْ فَوْقَ
أَغصان زَيْتُونَةٍ، وأَعدُّوا عشاءً
سريعاً من العِلَبِ المعدنيَّة، وانطلقوا
مسرعين إلى الشاحنات...

أَبَدُ الصُبَّار

إلى أَين تأْخُذُني يا أَبي؟
إلى جِهَةِ الريحِ يا وَلَدي...

... وَهُما يَخْرُجانِ مِنَ السَهْل، حَيْثُ
أَقام جنودُ بونابرتَ تلاًّ لِرَصْدِ
الظلال على سور عَكَّا القديم -
يقولُ أَبٌ لابنِهِ: لا تَخَفْ. لا
تَخَفْ من أَزيز الرصاص! إلتصِقْ
بالتراب لتنجو! سننجو ونعلو على

جَبَلٍ في الشمال، ونرجعُ حين
يعود الجنودُ إلى أهلهم في البعيد

- ومن يسكُنُ البَيْتَ من بعدنا
يا أَبي؟
- سيبقى على حاله مثلما كان
يا ولدي!

تَحَسَّسَ مفتاحَهُ مثلما يتحسَّسُ
أَعضاءه، واطمأنَّ. وقال لَهُ
وهما يعبران سياجاً من الشوكِ:
يا ابني تذكَّرْ! هنا صَلَبَ الانجليزُ
أَباك على شَوْك صُبَّارة ليلتين،
ولم يعترف أَبداً. سوف تكبر يا
ابني، وتروي لمن يَرِثُون بنادِقَهُمْ
سيرةَ الدم فوق الحديد...

- لماذا تركتَ الحصان وحيداً؟

ـ لكي يُؤْنسَ البيتَ، يا ولدي،
فالبيوتُ تموتُ إذا غاب سُكَّانُها...

تفتحُ الأبديَّةُ أَبوابها، من بعيد،
لسيَّارة الليل. تعوي ذئابُ
البراريِ على قَمَرٍ خائفٍ. ويقولُ
أَبٌ لابنه: كُنْ قوياً كجدِّك!
وأَصعَدْ معي تلَّة السنديان الأخيرةَ
يا ابني، تذكَّرْ: هنا وقع الانكشاريُّ
عن بَغْلَةِ الحرب، فاصمُدْ معي
لنعودْ

ـ متى يا أَبي؟
ـ غداً. ربما بعد يومين يا ابني!

وكان غَدٌ طائشٌ يمضغ الريح
خلفهما في ليالي الشتاء الطويلةْ.
وكان جنودُ يُهُوشُعَ بن نونٍ يبنون

قَلْعَتَهُمْ من حجارة بيتهما. وهما
يلهثان على درب «قانا»: هنا
مرَّ سيِّدُنا ذاتَ يومٍ. هنا
جَعَلَ الماءَ خمراً. وقال كلاماً
كثيراً عن الحبّ، يا ابني تذكّر
غداً. وتذكّرْ قلاعاً صليبيَّةً
قَضَمَتْها حشائش نيسان بعد
رحيل الجنود...

كم مَـرَّة ينتهي أمرُنا...

يتأمَّلُ أَيَّامَهُ في دخان السجائر،
ينظُرُ في ساعة الجَيْب:
لو أَستطيع لأبطأتُ دَقَّاتها
كي أُؤخِّر نُضْجَ الشعير!...
ويخرج من ذاته مرهقاً نزقاً:
جاء وقتُ الحصادْ
أَلسنابلُ مثقلةٌ، والمناجلُ مهملةٌ، والبلادْ
تَبْعُدُ الآنَ عن بابها النبويِّ.
يُحَدِّثُني صَيْفُ لبنانَ عن عِنَبي في الجنوب

يُحَدِّثُني صَيْفُ لبنانَ عمَّا وراء الطبيعةِ
لكن دربي إلى الله يبدأ
من نَجْمَةٍ في الجنوب...

ـ هل تُكَلِّمُني يا أَبي؟
ـ عقدوا هُدْنَةً في جزيرة رودوس،
يا ابني!
ـ وما شأننا نحن، ما شأننا يا أبي؟
ـ وانتهى الأمرُ ...
ـ كم مرّةً ينتهي أَمرُنا يا أَبي؟
ـ إنتهى الأمر. قاموا بواجبهم:
حاربوا ببنادقَ مكسورةٍ طائرات العدوّ.
وقمنا بواجبنا، وابتعدنا عن الزَنْزَلَخْتِ
لئلاّ نُحرِّكَ قُبَّعَةَ القائد العسكريّ.
وبعنا خواتم زوجاتنا ليصيدوا العصافير
يا ولدي!

ـ هل سنبقى، إذاً، ههنا يا أَبي

تحت صفصافة الريح
بين السموات والبحر؟

ـ يا ولدي! كُلُّ شيء هنا
سوف يُشْبِهُ شيئاً هناك
سنُشْبِهُ أَنفُسَنا في الليالي
ستحرقنا نجمة الشَبَه السرمديَّةُ
يا ولدي!

ـ يا أَبي، خفِّف القولَ عَنِّي!
ـ تركتُ النوافذَ مفتوحةً
لهديل الحمامْ
تركتُ على حافَّة البئر وجهي
تركتُ الكلامْ
على حَبْلِهِ فوق حبل الخزانةِ
يحكي، تركتُ الظلامْ
على ليلهِ يتدثَّرُ صُوفَ انتظاري
تركت الغمامْ

على شجر التين ينشر سِرْوالَهُ
وتركتُ المنامْ
يُجدِّدُ في ذاتِهِ ذاتَهُ
وتركتُ السلام
وحيداً، هناك على الأرض...

ـ هل كُنْتَ تحلُمُ في يَقْظتي يا أَبي؟
ـ قُمْ. سَنَرْجِعُ يا ولدي!

إلى آخري
وإلى آخره ...

ـ هل تَعِبْتَ من المشي
يا وَلَدي، هل تعبتْ؟
ـ نَعَمْ، يا أَبي
طال ليلُكَ في الدربِ،
والقلبُ سال على أَرض لَيْلِكَ
ـ ما زِلْتَ في خفَّة القطِّ
فاصْعَدْ إلى كتفيَّ،
سنقطع عمَّا قليلْ

غابة البُطْمِ والسنديان الأخيرةَ
هذا شمالُ الجليلْ
ولبنانُ من خلفنا،
والسماءُ لنا كُلُّها من دمشقَ
إلى سور عكا الجميلْ
ـ ثم ماذا؟
ـ نعود إلى البيت
هل تعرف الدرب يا ابني
ـ نعم، يا أَبي:
شرقَ خرّوبَةِ الشارع العامِّ
دربٌ صغيرٌ يَضِيقُ بِصُبَّارِه
في البداية، ثم يسير إلى البئرِ
أَوْسَعَ أَوْسَعَ، ثم يُطِلُّ
على كَرْمِ عَمِّي «جميلْ»
بائعِ التبغ والحَلَوِيَّات،
ثم يضيعُ على بَيْدَرٍ قبل
أَن يستقيمَ ويَجلِس في البيت،
في شكل بَبْغَاءَ،
ـ هل تعرف البيتَ، يا ولدي

ـ مثلما أَعرف الدرب أَعرفُهُ:
ياسمينٌ يُطوِّقُ بوَّابةً من حديد
ودعساتُ ضوءٍ على الدرج الحجريِّ
وعبَّادُ شمسٍ يُحَدِّقُ في ما وراء المكان
ونحلٌ أليفٌ يُعِدُّ الفطور لجدِّي
على طبق الخيزران،
وفي باحة البيت بئرٌ وصفصافةٌ وحصانْ
وخلف السياج غدٌ يتصفَّحُ أَوراقنا...

ـ يا أَبي، هل تَعِبْت
أَرى عرقاً في عيونكَ؟
ـ يا ابني تعبتُ ... أَتحمِلُني؟
ـ مثلما كنتَ تحملني يا أَبي،
وسأحمل هذا الحنين
إلى
أَوَّلي وإلى أوَّلِهْ
وسأقطع هذا الطريق إلى
آخري ... وإلى آخِرِهْ!

II

فضاءُ هابيل

عُودُ إسماعيل

فَرَسٌ على وَتَرَيْنِ ترقُصُ ـ هكذا
تُصْغي أَصابِعُهُ إلى دَمِهِ، وتنتشرُ القُرى
كشقائقِ النعمانِ في الإيقاعِ. لا
لَيْلٌ هناك ولا نهارٌ. مَسَّنا
طربٌ سَمَاويٌّ، وهَرْوَلَتِ الجهاتُ إلى
الهيولى
هَلِّلويا،
هَلِّلويا،
كُلُّ شيء سوف يبدأ من جديدِ
□

هُوَ صاحِبُ العُود القديمِ، وجارُنا
في غابة البَلُّوط. يحمل وقتَهُ مُتَخَفياً
في زِيٍّ مَجْنونٍ يُغَنِّي. كانتِ الحربُ انتهتْ
ورمادُ قريتنا اختفى بسحابةٍ سوداءَ لم
يُولَدْ عليها طائرُ الفينيقِ بَعْدُ، كما
تَوَقَّعْنا، ولم تَنْشَفْ دماءُ الليل في
قُمْصانِ موتانا. ولم تطلع نباتاتٌ، كما
يَتَوَقَّعُ النسيانُ، في خُوَذ الجنودِ
هَلِّلويا
هَلِّلويا،
كلُّ شيءٍ سوف يبدأ من جديدِ

□

كَبَقِيَّةِ الصحراء، يَنْحَسِرُ الفضاءُ عن الزمانِ
مسافةً تكفي لتنفجرَ القصيدةُ. كان إسماعيلُ
يهبط بيننا، ليلاً، ويُنشدُ: يا غريبُ،
أَنا الغريبُ، وأَنت منّي يا غريبُ! فترحَلُ
الصحراءُ في الكلمات. والكلماتُ تُهْمِلُ قُوَّةَ

الأشياءِ: عُدْ يا عُودُ... بالمفقودِ، واذبحْني
عَلَيْهِ، من البعيد إلى البعيدِ
هَلِّلويا
هللويا،
كُلّ شيء سوف يبدأ من جديدِ

□

يتحرَّكُ المعنى بنا... فنطيرُ من سَفْحٍ إلى
سَفحٍ رُخَاميّ. ونركُضُ بين هاوِيَتَيْنِ زَرْقاوينِ.
لا أحلامُنا تصحو، ولا حَرَسُ المكانِ
يغادرون فضاءَ إسماعيلَ. لا أَرضٌ هناكَ
ولا سماءٌ. مَسَّنا طربٌ جَمَاعيٌ أَمامَ
البَرْزَخِ المصنوعِ مِنْ وتَرَيْن. إسماعيلُ... غَنِّ
لنا، ليصبح كُلُّ شيءٍ مُمْكِناً قُرْبَ الوجودِ
هَلِّلويا
هَلِّلويا،
كُلُّ شيءٍ سوف يبدأ من جديدِ

□

في عُودِ إسماعيلَ يرتفعُ الزَفَافُ السُومَرِيُّ
إلى أقاصي السَيْفِ. لا عَدَمٌ هناك
ولا وجودٌ. مَسَّنا شَبَقٌ إلى التَكْوين:
من وَتَرٍ يسيلُ الماءُ. من وَتَرَيْنِ يندلعُ
اللهيبُ. ومن ثَلاثَتِهِمْ تَشعُّ المرأة /الكون/
التجلِّي. غَنِّ إسماعيلُ للمَعْنَى يُحَلِّقْ طائرٌ
عند الغروب على أثينا بين تاريخين...
غَنِّ جنازةً في يوم عِيدِ!
هَلِّلويا
هَلِّلويا،
كُلُّ شيء سوف يبدأ من جديدِ

□

تَحْتَ القصيدةِ: تعبُرُ الخيلُ الغريبةُ. تعبُرُ
العرباتُ فوق كواهل الأسرى. ويعبُرُ تحتها
النسيانُ والهكسوسُ. يعبرُ سادةُ الوقتِ،
الفلاسفةُ، امرؤُ القيسِ الحزينُ على غَدٍ
مُلْقىً على أبوابِ قيصَرَ. يعبرون جميعُهُمْ تحت

القصيدةِ. يعبُرُ الماضي المُعَاصِرُ مثل تَيْمُورْلَنْكَ
يعبُرُ تحتها. والأنبياءُ هناك أيضاً يعبرون
ويُنْصِتون لصوتِ إسماعيلَ يُنْشِدُ: يا غريبُ،
أَنا الغريبُ، وأنت مثلي يا غريبَ الدار،
عُدْ ... يا عُودُ بالمفقودِ، واذبَحْني عَلَيْكَ
من الوريد إلى الوريدِ
هَلِّلويا
هَلِّلويا،
كُلُّ شيءٍ سوف يبدأ من جديدِ

نُزهَةُ الغُرَباء

أَعرفُ البَيْتَ من خُصْلَةِ المَرْيَمِيَّةِ. أُولى
النوافذ تَجنحُ نحو الفراشاتِ... زرقاءَ...
حمراءَ. أَعرف خطَّ السحاب وفي أيِّ
بئرٍ سَيَنْتَظِرُ القُرَوِيَّاتِ في الصيف. أَعرفُ
ماذا تقولُ الحمامةُ حين تبيضُ على فُوهَّةِ
البندقيَّةِ. أَعرفُ مَنْ يفتح البابَ للياسمينةِ
وهي تفتِّح أَحلامنا لضيوف المساءْ...

□

لم تَصِلْ بعد مَرْكَبَةُ الغرباءْ

□

لم يَصِلْ أَحَدٌ. فَاترُكِيني هناك كما
تتركين التحيَّةَ في مدخل البيت. ليْ أَو
لغيري، ولا تحفلين بمن سوف يسمعها
أَوَّلاً. واتركيني هناك كلاماً لنفسيَ:
هل كنتُ وحدي «وحيداً كما الروحُ في
جَسَدٍ»؟ عندما قلتِ يوماً: أُحبُّكُما،
أَنتَ والماء. فالتمَعَ الماءُ في كُلِّ شيء،
كجيتارةٍ تركت نفسها للبكاءْ!

□

لم تصلْ بعد جيتارة الغُرَباءْ

□

فلنَكُنْ طيّبين! خُذيني إلى البحر عند
الغروب، لأسمع ماذا يقولُ لكِ البحرُ

حينِ يعودُ إلى نفسه هادئاً هادئاً.
لنِ أُغيِّر ما بي. سأندسُّ في مَوْجَةٍ
وأَقولُ: خُذيني إلى البحر ثانيةً. هكذا
يفعلُ الخائفون بأنفسِهِمْ: يذهبون إلى
البحرِ حين تعذِّبهم نجمةٌ أَحْرَقَتْ نفسها في السماءْ

□

لم تصل بعد أغنيةُ الغرباءْ

□

أَعرف البيت من خَفَقان المناديلِ. أُولى
الحمامات تبكي على كتفيَّ. وتحت سماءِ
الأناجيلِ يركضُ طفلٌ بلا سَبَبٍ. يَرْكُضُ
الماءُ، والسروُ يركضُ، والريحُ تركُضُ في
الريحِ، والأرضُ تركُضُ في نفسها. قلتُ:
لا تُسرعي في الخروج من البيت... لا
شيءَ يمنَعُ هذا المكانَ من الانتظار قليلاً
هنا، ريثما ترتدين قميصَ النهار، وتنتعلين

حذاء الهواءْ

□

لم تصل بعد أُسطورةُ الغرباءْ...

□

لم يَصلْ أَحَدٌ. فاتركيني هناك كما
تتركين الخُرافَةَ في أَيٍّ شخصٍ يراكِ، فيبكي
ويركض في نفسه خائفاً من سعادتِهِ:
كم أُحبُّكِ، كم أنتِ أَنتِ! ومِنْ رُوحِهِ
خائفاً: لا أَنا الآن إلاّ هِيَ الآن فيَّ.
ولا هِي إلاّ أَنا في هشاشتها. كم أَخافُ
على حُلُمي أَن يرى حُلُماً غيرَها في
نهايةِ هذا الغناءْ...

□

لم يصل أَحَدٌ
ربما أَخطأ الغرباءُ الطريقَ
إلى نُزْهَةِ الغرباء!

حِبْرُ الغراب

لَكَ خَلْوةٌ في وَحْشة الحرّوب، يا
جَرَسَ الغُروب الداكنَ الأصواتِ! ماذا
يطلبون الآن منكَ؟ بَحثتَ في
بُستانِ آدمَ، كي يوارِيَ قاتلٌ ضَجِرٌ أَخاهُ،
وانغلقتَ على سوادِكَ
عندما انفَتَحَ القتيلُ على مَدَاهُ،
وانصرَفْتَ إلى شُؤونكَ مثلما انصرفَ الغيابُ
إلى مشاغله الكثيرة. فلتَكُنْ
يَقِظاً. قيامتُنا سَتُرْجَأُ يا غرابُ!

□

لا لَيْلَ يكفينا لنحلُمَ مَرَّتَين. هناكَ بابُ
واحدٌ لسمائنا. من أَين تأتينا النهايةُ؟
نحن أَحفادَ البدايةِ. لا نَرَى
غَيْرَ البداية، فاتّحدْ بمهبِّ لَيْلِكَ كاهناً
يَعِظُ الفراغَ بما يُخَلِّفُهُ الفراغُ الآدَمِيُّ
من الصدى الأبديِّ حولكَ...
أَنْتَ مُتَّهَمٌ بما فينا. وهذا أَوَّلُ
الدَمِ من سُلاَلَتِنا أَمامَكَ، فابتعدْ
عن دار قابيلَ الجديدةِ
مثلما ابتعَدَ السرابُ
عن حِبْر رِيشكَ يا غرابُ

□

لِيَ خلْوَةٌ في ليل صوتكَ... لي غيابُ
راكضٌ بين الظلال يشدُّني
فأشدُّ قَرْنَ الثور. كان الغَيْبُ يدفعني وأَدفعُهُ
ويرفعُني وأَرفعُهُ إلى الشَبَح المُعَلّقِ مثل
باذنجانةٍ نَضَجَتْ. أَأَنت إذاً؟ فماذا

يطلبون الآن منّا بعدما سرقوا كلامي من
كلامك، ثم ناموا في منامي واقفينَ
على الرماح. ولم أَكُنْ شَبَحاً لكي يمشوا
خُطَايَ على خُطايَ. فكُنْ أَخي الثاني،
أَنا هابيلُ، يُرْجِعُني الترابُ
إليكَ خَرُّوباً لتجلسَ فوق غُصْني يا غرابُ

□

أَنا أَنتَ في الكلمات. يجمعنا كتابٌ
واحدٌ. ليَ ما عَلَيْكَ من الرماد، ولم
نَكُنْ في الظلِّ إلاّ شاهِدَيْنِ ضحيَّتَيْنِ
قصيدتينِ
قصيرتينِ
عن الطبيعة، ريثما يُنْهي وليمَتُه الخرابُ

□

ويضيئك القرآنُ:
﴿فبَعَثَ اللّهُ غراباً يبحث في الأرض

لِيُرِيَهُ كيف يواري سوءة أخيه، قال:
يا ويلتي أَعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾
ويضيئك القرآنُ،
فابحثْ عن قيامتنا، وحلِّقْ يا غُرَابُ!

سنونو التتار

على قَدْرِ خَيْلي تكونُ السماءُ. حَلُمْتُ
بما سوف يحدُثُ بعد الظهيرة. كان التتارُ
يسيرون تحتي وتحت السماء، ولا يحلمون
بشيء وراء الخيام التي نصبوها. ولا يعرفون
مصائرَ ماعِزِنا في مهبِّ الشتاء القريب.
على قدر خَيْلي يكون المساء. وكان التتارُ
يَدُسُّون أَسماءَهُمْ في سقوف القرى كالسنونو،
وكانوا ينامون بين سنابلنا آمنين،
ولا يحلمون بما سوف يحدث بعد الظهيرة، حين

تعودُ السماءُ، رُوَيْداً رُوَيْداً،
إلى أهلها في المساءْ

□

لنا حُلُمٌ واحدٌ: أَن يمرَّ الهواءْ
صديقاً، وينشُرَ رائحةَ القهوةِ العربيّةِ
فوق التلال المحيطة بالصيف والغرباءْ...

□

أَنا حُلُمي. كُلَّما ضاقت الأرضُ وَسَّعْتُها
بجناح سُنُونُوَّةٍ واتسعْتُ. أَنا حُلُمي...
في الزحام امتلأْتُ بمرآة نفسي وأَسئلتي
عن كواكبَ تمشي على قَدَمَيْ مَنْ أُحبُّ...
وفي عزلتي طُرُقٌ للحجيج إلى أُورشليم ـ
الكلام المُنَتَّف كالريش فوق الحجارة،
كَمْ مِنْ نَبِيّ تريد المدينةُ كي تحفظ اسم
أَبيها وتندم: «من غير حربٍ سَقَطْتُ»؟
وكم من سماءٍ تُبَدِّل، في كل شَعْبٍ،

ليعجبَها شالُها القرمزيُّ؟ فيا حُلُمي...
لا تُحدِّقْ بنا هكذا!
لا تَكُنْ آخِرَ الشُهَدَاء!

□

أَخافُ على حُلُمي من وضوح الفراشةْ
ومن بُقَعِ التوت فوق صهيل الحصان
أَخافُ عَلَيْهِ من الأب والابن والعابرينْ
على ساحل الأبيض المتوسِّط بحثاً عن الآلهة
وعن ذَهَب السابقين،
أَخاف على حُلُمي من يديَّ
ومن نجمةٍ واقفة
على كتفي في انتظار الغناء

□

لنا، نحن أَهْلَ الليالي القديمة، عاداتُنا
في الصعودِ إلى قَمَر القافيةْ
نُصَدِّقُ أحلامَنا ونكذِّبُ أيَّامَنا،

فأيّامُنا لم تكن كُلُها معنا منذ جاء التتارُ،
وها هم يُعِدُّون أَنفسهم للرحيلِ
وينسون أَيّامَنا خَلْفَهُمْ، وسنهبط عما قليل
إلى عمرنا في الحقول. ونصنع أَعلامنا
من شراشِفَ بيضاءَ. إنْ كانَ لا بُدَّ
من عَلَمٍ، فليكُنْ هكذا عارياً
من رُمُوزٍ تُجَعِّدُهُ... ولنكُنْ هادئين
لئلاّ نُطَيِّرَ أَحلامَنا خلف قافلة الغرباء

□

لنا حُلُم واحد: أَن نَجِدْ
حُلُماً كان يحملنا
مثلما تحملُ النجمةُ الميتين!

مَـرَّ القطار

مَرَّ القطارُ سريعاً،
كُنْتُ أنتظرُ
على الرصيف قطاراً مَرَّ،
وانصرَفَ المُسافرونَ إلى
أَيَّامِهِمْ ... وأَنا
ما زلتُ أَنتظرُ

o

تبكي الكمنجاتُ عن بُعْدٍ،

فتحملني
سحابةٌ من نواحيها
وتنكسرُ

ο

كان الحنينُ إلى أشياءَ غامِضَةٍ
يَنْأَى ويَدْنُو،
فلا النسيانُ يُقْصِيني،
ولا التذكُّرُ يدنيني
من امرأة
إن مَسَّها قمرٌ
صاحَتْ: أَنا القَمَرُ

ο

مَرَّ القطارُ سريعاً،
لم يكن زَمَني
على الرصيف معي،
فالسَاعةُ اختلفتْ

ما الساعةُ الآن؟
ما اليومُ الذي حَدَثَتْ
فيه القطيعةُ بين الأمس والغدِ
لَمَّا هاجر الغَجَرُ؟

○

هنا وُلدتُ ولم أُولَدْ
سيُكْمِلُ ميلادي الحَروُنَ إذاً
هذا القطارُ
ويمشي حولِيَ الشَجَرُ

○

هنا وُجدتُ ولم أُوجَدْ
سأعثُرُ في هذا القطارِ
على نفسي التي امتلأتْ
بضفّتينِ لنهرٍ مات بينهما
كما يموتُ الفتى
«ليت الفتى حَجَرُ ...»

○

مَرَّ القطارُ سريعاً
مَرَّ بي، وأَنا
مثل المحطَّة، لا أَدري
أُودِّعُ أَم أَستقبلُ الناسَ:
أَهلاً، فوق أَرصفتي
مقهى،
مكاتبُ،
وردٌ
هاتفٌ،
صُحُفٌ
وسندويشاتٌ،
وموسيقى،
وقافيةٌ
لشاعرٍ آخرٍ يأتي وينتظرُ

o

مَرَّ القطار سريعاً
مَرَّ بي، وأَنا
ما زلتُ أَنتظرُ

III

فوضى على باب القيامة

البئر

أَختارُ يوماً غائماً لأَمُرَّ بالبئر القديمةِ.
رُبّما امتلأتْ سماءً. رُبّما فاضَتْ عن المعنى وَعَنْ
أُمْثُولةِ الراعي. سأشربُ حفنةً من مائها.
وأَقولُ للموتى حوالَيْها: سلاماً، أَيُّها البَاقونَ
حول البئر في ماءِ الفراشةِ! أَرفَعُ الطَيُّونَ
عن حَجَرٍ: سلاماً أَيها الحَجَرُ الصغيرُ! لعلّنا
كُنَّا جناحَيْ طائرٍ ما زال يوجعُنا. سلاماً
أَيها القَمَرُ المُحَلِّقُ حَوْلَ صُورَتِهِ التي لن يلتقي
أَبداً بها! وأَقول للسَرْوِ: انتبهْ ممَّا يقولُ

لَكَ الغبارُ. لعلَّنا كنا هنا وَتَرَيْ كمانٍ
في وليمة حارساتِ اللازَوَرْدِ. لعلَّنا كُنَّا
ذراعَيْ عاشقٍ...
قد كنتُ أَمشي حَذْوَ نفسيْ: كُنْ قويّاً
يا قريني، وارفعِ الماضي كقرنَيْ ماعزٍ
بيديكَ، واجلسْ قرب بئرك. رُبَّما التفتتْ
إليكَ أَيائلُ الوادي ... ولاح الصوتُ ـ
صوتُك صورةً حجريَّةً للحاضر المكسورِ...
لم أُكْملْ زيارتي القصيرةَ بَعْدُ للنسيانِ...
لم آخُذْ مَعي أَدواتِ قلبي كُلَّها:
جَرَسي على ريح الصنوبرِ
سُلَّمي قرب السماءِ
كواكبي حول السطوحِ
وبُحَّتي من لَسْعة الملح القديم...
وَقُلْتُ للذكرى: سَلاماً يا كلامَ الجَدّة العَفَوِيَّ
يأخُذُنا إلى أَيَّامنا البيضاءِ تحت نُعَاسها...
واسْمِيْ يرنُّ كليرة الذَهَبِ القديمةِ عِنْدَ
باب البئرِ. أَسْمَعُ وَحْشَةَ الأَسلاف بين

الميم والواو السحيقة مثل وادٍ غيرِ ذي
زرعٍ. وأُخفي تعبي الوديَّ. أَعرفُ أَنني
سأعود حيّاً، بعد ساعاتٍ، من البئر التي
لم أَلْقَ فيها يوسُفاً أَو خَوْفَ إخوتِهِ
مِنَ الأصداء. كُنْ حَذِراً! هنا وضعتْكَ
أُمُّكَ قرب باب البئر، وانصرَفَتْ إلى تَعْويذةٍ...
فاصنعْ بنفسكَ ما تشاءُ. صَنَعْتُ وحدي ما
أَشاءُ: كبرتُ ليلاً في الحكاية بين أَضلاعِ
المُثَلَّثِ: مصرَ، سوريّا، وبابلَ. ههنا
وحدي كبرتُ بلا إِلٰهاتِ الزراعة. [كُنَّ
يَغْسِلْنَ الحصى في غابة الزيتون. كُنَّ مُبلَّلاتٍ
بالندى] ... ورأيتُ أَنّي قد سقطتُ
عليَّ من سَفَرِ القوافلِ، قرب أَفعى. لم
أَجِدْ أَحداً لأُكْمِلَهُ سوى شَبَحي. رَمَتْني
الأرضُ خارجَ أَرضها، واسمي يَرِنُّ على خُطَايَ
كَحذْوةِ الفَرَسِ: اقتربْ ... لأَعود من هذا
الفراغ إليكَ يا جلجامشُ الأبديُّ في اسْمِكَ!..
كُنْ أَخي! واذْهَبْ معي لنصيحَ بالبئر

القديمة... ربما امتلأتْ كأنثى بالسماء،
ورُبَّما فاضت عن المعنى وعمَّا سوف
يحدُثُ في انتظارِ ولادتي من بئريَ الأُولى!
سنشرب حفنةً من مائها،
سنقول للموتى حواليها: سلاماً
أَيها الأحياءُ في ماء الفَرَاشِ،
وأَيُّها الموتى، سلاماً!

كالنون في سورة الرحمن

في غابة الزيتون، شَرْقَ
الينابيع انطوى جَدِّي على ظلِّهِ
المهجور. لم يَنْبُتْ على ظلِّهِ
عُشْبٌ خرافيٌّ،
ولا غيمةُ اللَّيْلَكِ
سالَتْ داخل المشهدْ

□

ألأرضُ مثل الثوب منسوجةٌ

بإبرة الشُمَّاق في حُلْمِهِ
المكسور ... جدّي هَبَّ من نومِهِ
كي يجمَعَ الأَعشابَ من كرمِهِ
المطمور تحت الشارع الأَسودْ ...

□

عَلَّمني القرآنَ في دوحة الريحانِ
شَرْقَ البئر،
من آدمٍ جئنا ومن حوّاءَ
في جنة النسيانِ.
يا جدِّي! أَنا آخر الأَحياء
في الصحراء، فلنصعدْ!

□

البحرُ والصحراءُ حول اسمِهِ
العاري من الحُرّاسِ
لم يعرفا جدّي ولا أَبناءَهُ
الواقفين الآن حول «النون»

في سورة «الرحمن»،
اللهم ... فلتشهَدْ!

□

أَمَّا هُوَ المولود من نفسِهِ
الموءودُ، قرب النار،
في نفسه،
فليَمْنَحِ العنقاءَ من سرِّهِ
المحروق ما تحتاجُهُ بعده
كي تُشْعِلَ الأضواءَ في المَعْبَدْ

□

في غابة الزيتون، شَرْقَ الينابيعِ
انطوى جدِّي على ظلِّه
المهجور. لم تُشْرق على ظلِّه
شمسٌ. ولم يهبط على ظلِّه
ظلٌّ،
وجدِّي دائماً، أَبعدْ ...

تعاليم حُوريَّة

I

فَكَّرتُ يوماً بالرحيل، فحطَّ حَسُّونٌ على
يدها ونام. وكان يكفي أَن أُداعِبَ غُصْنَ
دالِيَةٍ على عَجَلٍ... لِتُدْركَ أَنَّ كأسَ نبيذيَ
امتلأتْ. ويكفي أَن أنامَ مُبَكِّراً لتَرَى
منامِيَ واضحاً، فتطيلُ لَيْلَتَها لتحرسَهُ...
ويكفي أَن تجيء رسالةٌ منّي لتعرف أَنَّ
عنواني تغيَّر، فوق قارِعَةِ السجون، وأَنَّ
أَيَّامي تُحوِّمُ حَوْلَها... وحيالها

II

أُمّي تَعُدُّ أَصابعي العشرينَ عن بُعْدِ.
تُمَشِّطُني بخُصْلَةِ شعرها الذَهَبيّ. تبحثُ
في ثيابي الداخليّةِ عن نساءٍ أَجنبيّاتٍ،
وَتَرْفُو جَوْربي المقطوعَ. لم أَكبرْ على يَدِها
كما شئنا: أَنا وَهِيَ، إفترقنا عند مُنْحَدرِ
الرُخام... ولوَّحت سُحُبٌ لنا، ولماعزٍ
يَرِثُ المَكانَ. وأَنْشَأَ المنفى لنا لغتين:
دارجةً... ليفهَمَها الحمامُ ويحفظَ الذكرى
وفُصْحى... كي أُفسِّرَ للظلال ظِلالَها!

III

ما زلتُ حيّاً في خِضَمِّكِ. لم تَقُولي ما
تقولُ الأُمُّ للوَلَدِ المريضِ. مَرِضْتُ من قَمَرِ
النحاس على خيام البَدْوِ. هل تتذكرين
طريق هجرتنا إلى لبنانَ، حَيْثُ نسيتِني
ونسيتِ كيسَ الخُبْزِ [كان الخبزُ قمحيّاً].
ولم أَصرخْ لئلاَّ أُوقظَ الحُرّاسَ. حَطَّتْني

على كَتِفَيْكِ رائحةُ الندى. يا ظَبْيَةً فَقَدَتْ
هُنَاكَ كِنَاسَها وغزالها...

IV

لا وَقْتَ حَوْلَكِ للكلام العاطِفيِّ.
عَجَنْتِ بالحَبَقِ الظهيرةَ كُلَّها. وَخَبَزْتِ للسُمَّاقِ
عُرْفَ الدِيك. أَعْرِفُ ما يُخَرِّبُ قلبَكِ المَثْقُوبَ
بالطاووس، مُنْذُ طُرِدَتِ ثانيةً من الفردوس.
عالَمُنا تَغَيَّر كُلُّهُ، فتغيَّرتْ أَصواتُنا. حتّى
التحيَّةُ بيننا وَقَعَتْ كزرٍّ الثَوْبِ فوق الرمل،
لم تُسْمِعْ صدىً. قولي: صباح الخير!
قولي أيَّ شيء لي لتمنَحني الحياةُ دَلاَلَها.

V

هي أُختُ هاجَرَ. أُختُها من أُمِّها. تبكي
مع النايات مَوْتى لم يموتوا. لا مقابر حول
خيمتها لتعرف كيف تَنْفَتِحُ السماءُ، ولا
ترى الصحراءَ خلف أَصابعي لترى حديقَتَها
على وَجْه السراب، فيركُض الزَمَنُ القديمُ

بها إلى عَبَثٍ ضروريٍّ: أَبوها طار مثلَ
الشَرْكَسيِّ على حصان العُرْس. أَمَّا أُمُّها
فلقد أَعدَّتْ، دون أن تبكي، لِزَوْجَة زَوْجِها
حنَّاءَها، وتفحَّصَتْ خلخالها...

VI

لا نلتقي إلاَّ وداعاً عند مُفْتَرَقِ الحديث.
تقول لي مثلاً: تزوّجْ أَيَّةَ امرأة مِنَ
الغُرَباء، أَجمل من بنات الحيِّ. لكنْ، لا
تُصَدِّقْ أَيَّةَ امرأة سوايَ. ولا تُصَدِّقْ
ذكرياتِكَ دائماً. لا تَحْتَرِقْ لتضيء أُمَّكَ،
تلك مِهْنَتُها الجميلةُ. لا تحنَّ إلى مواعيد
الندى. كُنْ واقعيّاً كالسماء. ولا تحنّ
إلى عباءة جدِّكَ السوداءِ، أَو رَشَوَاتِ
جدّتكَ الكثيرةِ، وانطلِقْ كالمُهْرِ في الدنيا.
وكُنْ مَنْ أَنت حيث تكون. واحملْ
عبءَ قلبِكَ وَحْدَهُ... وارجع إذا
اتَّسَعَتْ بلادُكَ للبلاد وغيَّرتْ أَحوالَها...

VII

أُمِّي تضيء نُجُومَ كَنْعَانَ الأخيرةَ،
حول مرآتي،
وتَرْمي، في قصيدتِيَ الأَخيرةِ، شَالَها!

أمشاط عاجيّة

مِنَ القَلْعَةِ انحدَرَ الغيمُ أَزرقَ
نحو الأَزِقّةِ ...
شالُ الحرير يطيرُ
وسربُ الحمام يطيرُ
وفي بِرْكَةِ الماء تمشي السماءُ قليلاً
على وجهها وتطيرُ
ورُوحي تطيرُ، كعاملة النَحْلِ، بين الأَزِقّةِ
والبحرُ يأكُلُ من خبزها، خبزِ عَكّا
ويفرُكُ خاتَمَها مُنْذُ خَمْسَةِ آلافِ عامِ

ويرمي على خدِّها خَدَّهُ...
في طقوس الزفاف الطويل الطويلْ

□

تقولُ القصيدةُ:
فلننتظرْ
ريثما تسقط النافذةْ
فوق «أَلْبُومِ» هذا الدليل السياحيّ

□

أَدخُلُ من إِبْطها الحجريِّ، كما
يدخُلُ الموجُ في الأبديّةِ. أَعبُرُ
بين العصور كأنّيَ أَعبُرُ بين الغُرَفْ
أَرى فيَّ محتوياتِ الزمانِ الأليفة:
مرآةَ بِنْتٍ لكنعانَ،
أَمشاطَ شَعْرٍ من العاجِ،
صَحْنَ الحَساءِ الأَشوريَّ،
سَيْفَ المُدافع عن نَوْمِ سَيِّده الفارسيِّ،

وقفزَ الصقور المفاجِىءَ من عَلَمٍ نحو آخرَ
فوق صواري الأَساطيل...

□

لو كان لي حاضرٌ آخرٌ
لامتلكتُ مفاتيحَ أَمسي
ولو كان أَمسي معي
لامتلكتُ غدي كُلَّهُ ...

□

غامضٌ سَفَري في الزقاقِ الطويلِ
المؤدي إلى قَمَرٍ غامضٍ فوق سُوقِ
النحاس. هنا نخلةٌ تحمل البرجَ عنِّي،
وهاجَسُ أُغنيَّةٍ تنقُلُ الأدواتِ البسيطةَ
حولي، لصُنْعِ تْرَاجِيدْيا مُكَرَّرةٍ، والخيالُ
هنا بائعٌ جائعٌ يتجوَّلُ فوق الغبار أَليفاً،
كأَنِّيَ لا شأن لي بالذي سوف يحدُثُ
لي في احتفالات يوليوس قَيْصَرَ ... عمَّا قليل!

□

أَنا والحبيبةُ نشربُ
ماءَ المَسرَّةِ
من غيمةٍ واحدةْ
ونهبط في جَرَّةٍ واحدةْ!

□

رَسَوْتُ بمينائها، لا لشيءٍ سوى
أَنَّ أُمّي أضاعت مناديلها ههنا...
لا خرافةَ لي ههنا. لا أُقايضُ
آلهةً أَو أُفاوضُ آلهةً. لا خرافةَ
لي ههنا كي أُعبِّىءَ ذاكرتي بالشعيرِ
وأسماءِ حُرّاسها الواقفين على كتفيَّ
انتظاراً لفجر تُحُتْمُس. لا سيف لي،
لا خرافة لي هَهنا لأُطلِّق أُمِّي التي
حَمَّلتْني مناديلَها، غيمةً غيمةً، فوق
ميناء عكا القديمة... عند الرحيلْ!

□

ستحدث أشياءُ أُخرى،
سيكذبُ هنري على
قَلاَوونَ، بعد قليلْ
سيرتفع الغيمُ أَحمرَ فوق صُفُوف النخيلْ ...

أطوار أنات

الشِعْرُ سُلَّمنا إلى قَمَرٍ تُعَلِّقُهُ أَناتُ
على حَدِيقتها، كمرآةٍ لعُشَّاقٍ بلا أَمَلٍ، وتمضي
في براري نفسها امرأتينِ لا تتصالحانِ:
هُنَالكَ امرأةٌ تُعيدُ الماءَ للينبوعِ،
وامرأةٌ تقودُ النارَ في الغاباتِ،
أَمَّا الخيلُ
فلترقُصْ طويلاً فوق هاوِيَتَيْنِ،
لا مَوْتٌ هناك ... ولا حياةُ.
وقصيدتي زَبَدُ اللُهاثِ وصرخَةُ الحيوانِ

عند صُعُودِهِ العالي
وعند هبوطه العاري: أَناتُ!
أَنا أُريدُكُما معاً، حُبّاً وحرباً، يا أَناتُ
فإلى جَهَنَّمَ بيْ... أُحبُّكِ يا أَناتُ!
وأَناتُ تقتُلُ نَفْسَها
في نَفْسها
ولنفسِها
وتُعيدُ تكوينَ المسافة كي تمرَّ الكائناتُ
أَمامَ صورتها البعيدةِ فوق أَرضِ الرافدينِ
وفوق سُوريّا. وتأتمرُ الجهاتُ
بصَوْلجانِ اللازَوَرْدِ وخاتَمِ العذراءِ: لا
تتأخّري في العالم السُفليِّ. عُودي من هناكَ
إلى الطبيعةِ والطبائع يا أَناتُ!
جَفَّتْ مياهُ البئر بَعْدَكِ، جَفَّتِ الأَغوارُ
والأَنهارُ جَفَّتْ بعد موتكِ. والدموع
تَبَخَّرَتْ من جَرَّة الفخّار، وانكسرَ الهواءُ
من الجفاف كَقِطْعَةِ الخشب. إنكسرنا كالسياجِ
على غيابكِ. جَفَّتِ الرغباتُ فينا. والصلاةُ

تكلَّسَتْ. لا شيءَ يحيا بعد موتكِ. والحياةُ
تَموتُ كالكلمات بين مُسَافِرَيْن إلى الجحيمِ،
فيا أَناتُ
لا تمكُثي في العالم السُفليِّ أَكثَرَا رُبَّما
هَبَطَتْ إلهاتٌ جديداتٌ علينا من غيابكِ
وامتَثَلْنا للسرابِ. ورُبَّما وَجَدَ الرُعاةُ
الماكرونَ إلهةً، قرب الهباءِ وصدَّقَتْها الكاهناتُ
فلتَرْجعي، ولتُرْجعي أَرضَ الحقيقةِ والكنايةِ،
أَرضَ كَنْعانَ البدايةِ،
أَرضَ نَهْدَيْكِ المشاع،
وأَرض فَخْذَيْكِ المشاع، لكي تعودَ المعجزاتُ
إلى أَريحا،
عند باب المَعْبَدِ المهجورِ... لا
موتٌ هناك ولا حياةُ
فَوْضى على باب القيامة. لا غَدٌ
يأتي. ولا ماضٍ يجيىء مُودِّعاً.
لا ذكرياتُ
تطيرُ من أَنحاءِ بابلَ فوق نخلتنا، ولا

حُلُمٌ يُسَامِرُنا لنسكنَ نجمةً،
هِيَ زِرٌّ ثوبِكِ، يا أَناتُ
وأَناتُ تخلق نفسَها
من نفسِها
ولنفسِها
وتطيرُ خَلْفَ مراكب-الإغريقِ،
في اسمٍ آخَرَ،
إمرأتينِ لن تتصالحا أَبداً ...
وأَمَّا الخيلُ
فلترقُصْ طويلاً فوق هاويتين. لا
موتٌ هناك ولا حياةُ
لا أَنا أحيا هنالك، أَو أموتُ
ولا أَناتُ
ولا أَناتُ!

مصرع العنقاء

في الأناشيدِ التي نُنْشدُها

نايٌ،

وفي الناي الذي يَسْكُنُنا

نارٌ،

وفي النار التي نُوقِدُها

عنقاءُ خضراءُ،

وفي مرثيّة العنقاء لم أَعرفْ

رمادي من غبارِكْ

□

غيمةٌ من لَيْلَكِ تكفي
لتُخْفي
خيمة الصيَّاد عنَّا. فأمشِ
فوق الماء كالسيِّد ـ قالت لي:
فلا صحراءَ للذكرى التي أَحملها عنكَ
ولا أَعداءَ، منذ الآن، للورد
الذي يبزُغُ من أَنقاض دارِكْ!

□

كان ماءٌ يُشبهُ الخاتَمَ حول
الجَبَلِ العالي. وكانت طبريّا
ساحةً خلفيَّةً للجنَّة الأُولى،
وقلتُ: اكتملَتْ
صُورةُ العالم في عينين خضراوين
قالتْ: يا أَميري وأَسيري
ضَعْ خُموري في جرارِكْ!

□

الغريبانِ اللذان احْتَرَقا فينا
هُـما
مَنْ أَرادا قَتْلَنا قبل قليلٍ
وَهُما
مَنْ يعودان إلى سَيْفَيْهما بعد قليلٍ
وَهُما
مَنْ يقولان لنا: مَنْ أَنتما؟
ـ نحن ظلاَّن لِمَا كُنَّا هنا، واسمان
للقمحِ الذي ينبتُ في خبز المعاركْ

□

لا أُريدُ العودة الآن، كما
عاد الصليبيُّونَ منِّي، فأنا
كُلُّ هذا الصمت بين الجهتين: الآلهة
من جِهَةْ،
والذين ابتكرُوا أَسماءهم
من جِهَةٍ أُخرى،
أَنا الظلُّ الذي يمشي على الماءِ

أَنا الشاهدُ والمشهَدُ
والعابدُ والـمَعْبَدُ
في أَرض حصاري وحصاركْ

□

كُنْ حبيبي بين حربين على المرآة ـ
قالت ـ لا أُريدُ العودةَ الآنَ إلى
حِضْنِ أَبي... خُذْني إلى كرمكَ، واجمعني
إلى أُمّكَ، عَطِّرني بماء الحَبَق، انثرني
على آنية الفضَّة، مَشِّطني، وأَدخلني
إلى سِجْنِ اسمِكَ، اقتُلْني من الحبِّ،
تَزوَّجْني، وزَوِّجْني التقاليدَ الزراعيَّةَ،
دَرِّبني على الناي، واحرقني لكي أُولَدَ
كالعنقاءِ من ناري وناركِ!

□

كان شيءٌ يُشبهُ العنقاءَ
يبكي دامياً،

قبل أَن يَسْقُطَ في الماء،
على مقربة من خَيْمَةِ الصيَّاد ...

ما نَفْعُ انتظاري وانتظارِكْ؟

IV

غرفة للكلام مع النفس

تدابير شعريّة

لم يكُنْ للكواكب دَوْرٌ،
سوى أَنها
عَلَّمَتْني القراءةَ:
لي لُغَةٌ في السماءْ
وعلى الأرض لي لُغَةٌ
مَنْ أَنا؟ مَنْ أَنا؟

□

لا أُريدُ الجوابَ هنا .

ربما وَقَعَتْ نجمةٌ فوق صورتها
ربما ارتفعتْ غابةُ الكستنا
بِيَ نَحْوَ المجرَّةِ، ليلاً،
وقالتْ: ستبقى هنا!

□

أَلقصيدةُ فوق، وفي وُسْعِها
أَن تُعَلِّمني ما تشاءُ
كأَنْ أَفتح النافذةْ
وأُدير تدابيري المنزليَّةَ
بين الأساطير. في وسعها
أَن تزوِّجني نفسها ... زمنا

□

وأَبي تحت، يحملُ زيتونةً
عمرُها أَلفُ عامٍ،
فلا هِيَ شرقيَّةٌ
ولا هِيَ غربيةٌ.

رُبَّما يستريح من الفاتحين،
ويحنو عليَّ قليلاً،
ويجمَعُ لِيْ سوسنا

□

أَلقصيدةُ تبعد عنِّي،
وتدخل ميناءَ بحّارةٍ يعشقون النبيذَ
ولا يرجعون إلى امرأةٍ مَرَّتَيْنِ،
ولا يحملون حنيناً إلى أيٍّ شيءٍ
ولا شَجَنا!

□

لم أَمُتْ بعد حُبّاً
ولكنَّ أُمّاً ترى نَظَراتِ ابنها
في القرنفل تخشى على المزهرية من جرحها،
ثُمَّ تبكي لتُبْعدَ حادثةً
قبل أَن تصِلَ الحادثةْ
ثم تبكي لتُرْجعني من طريق المصائدِ

حيّاً، لأحيا هنا

□

أَلقصيدةُ ما بين بين، وفي وُسْعِها
أَن تُضِيءَ الليالي بنَهْدَيْ فتاةٍ،
وفي وسعها أَن تضيء بتُفَّاحةِ جَسَدَيْنِ،
وفي وسعها أَن تُعيد،
بصرخة غاردينيا، وطنا!

□

ألقصيدةُ بين يديَّ، وفي وسعها
أَن تدير شؤون الأساطير،
بالعَمَل اليدويِّ، ولكنني
مذ وَجَدتُ القصيدةَ شرَّدتُ نفسي
وساءلتها:
من أنا
من أنا؟

من روميّات
أبي فراس الحمداني

صدىً راجعٌ. شارعٌ واسعٌ في الصدى
خُطىً تَتَبادَلُ صَوْتَ السُعَال، وتَدْنو
مِنَ الباب، شَيْئاً فشَيْئاً، وتَنْأَى
عن الباب. ثَمَّةَ أَهلٌ يَزُورُونَنَا
غداً، في خميس الزيارات. ثَمَّةَ ظِلٌّ
لنا في المَمَرِّ. وشمسٌ لنا في سلالِ
الفواكِهِ. ثَمَّةَ أُمٌّ تُعاتبُ سجّانَنا:

لماذا أَرَقْتَ على العُشْب قهوَتنا يا
شَقيٌ؟ وثَمَّةَ مِلْحٌ يَهُبُّ من البحر،
ثمَّةَ بَحْرٌ يَهُبُّ من الملحِ. زنزانتي
اتَّسَعَتْ سنتيمتراً لصوت الحمامةِ: طيري
إلى حَلَبٍ، يا حمامةُ، طيري بِرُومِيَّتي
واحملي لابنِ عمّي سلامي!
صدىً
للصدى. للصدى سُلَّمٌ مَعْدَنِيٌّ، شَفَافيَّةٌ، وندى
يعجُّ بمَنْ يَصْعَدون إلى فجرهم... وبمَنْ
ينزلون إلى قبرهم من ثُقُوب المَدَى...
خُذُوني إلى لُغَتي مَعَكُمْ! قلتُ:
ما ينفَعُ الناسَ يمكُثُ في كَلِماتِ القصيدِ
وأَمَّا الطُبولُ فتطفو على جِلْدها زَبَدَا
وزنزانتي اتَّسَعَتْ، في الصدى، شرفةً
كَثَوْبِ الفتاة التي رافَقَتْني سُدى
إلى شُرُفات القطار، وقالتْ: أَبي
لا يُحبّكَ. أُمّي تُحبّكَ. فاحذرْ سَدُومَ غدا
ولا تَنْتَظِرْني، صَبَاح الخميس، أَنا لا

أُحبُّ الكثافَةَ حين تُخَبِّىءُ في سجنها
حَرَكات المعاني، وتتركُني جَسَدا
يَتَذكَّرُ غاباتِهِ وَحْدَهُ... للصدى غُرْفَةٌ
كزنزانتي هذه: غُرْفَةٌ للكلام مع النفسِ،
زنزانتي صُورَتي لم أَجِدْ حَوْلَها أَحدا
يُشَارِكْني قهوتي في الصباح، ولا مِقْعَدا
يُشاركني عُزْلَتي في المساء، ولا مَشْهَدا
أُشارِكُهُ حَيْرتي لِبلُوغ الهُدَى.
فلأكُنْ ما تريدُ لِيَ الخَيْلُ في الغَزَوات:
فإمَّا أَميراً
وإمَّا أَسيراً
وإمَّا الردى!
وزنزانتي اتَسَعَتْ شارعاً شارعين. وهذا الصدى
صدى، بارحاً سانحاً، سوف أخرُجُ من حائطي
كما يخرج الشَبَحُ الحُرُّ من نفسه سَيِّدا
وأَمشي إلى حَلَبٍ. يا حمامةُ طيري
برُوميَّتي، واحملي لابن عمِّي
سلامَ الندى!

من سماء إلى أختها
يعبر الحالمون

.. وتَرَكْنا طفولتنا للفراشة، حين تَرَكْنا
على الدَرَجات قليلاً من الزيت، لكننا
نسينا تحيَّةَ نعناعنا حولنا، ونسينا
السلامَ السريعَ على غدنا بعدنا...
كان حبرُ الظهيرةِ أبيضَ، لولا
كتابُ الفراشة من حولنا...

□

يا فراشةُ! يا أُخْتَ نفسك، كوني
كما شئتِ، قبل حنيني وبعد حنيني.
ولكنْ خُذيني أَخاً لجناحِكِ يَبْقَ جنوني
معي ساخناً! يا فراشةُ! يا أُمَّ
نفسك، لا تتركيني لما صَمَّمَ الحرفيُّون
لي من صناديقَ... لا تتركيني!

□

من سماءٍ إلى أُختها يعبُرُ الحالمونْ
حاملين مرايا من الماء حاشيةً للفراشةِ
في وسعنا أَن نكون كما ينبغي أن نكون
من سماءٍ
إلى أُختها
يعبُرُ الحالمونْ

□

أَلفراشَةُ تنسجُ من إبرة الضوء
زينة ملهاتها

أَلفراشة تُولَدُ من ذاتها
والفراشةُ ترقص في نار مأساتها

□

نصفُ عنقاءَ. ما مَسَّها مَسَّنا: شَبَهٌ
داكِنٌ بين ضوءٍ ونارٍ... وبين طريقين.
لا. ليس طيشاً ولا حكمةً حُبُّنا
هكذا دائماً، هكذا ... هكذا
من سماءٍ
إلى أُختها
يعبر الحالمون ...

□

أَلفراشةُ ماءٌ يحنُّ إلى الطيران. ويُفْلِتُ
من عَرَق الفتيات، وينبتُ في غيمةِ
الذكريات. الفراشة ما لا تقولُ القصيدةُ،
من فَرْطِ خِفَّتها تَكْسِرُ الكلماتِ، كما
يكسر الحُلُمُ الحالمين...

□

وليكن ..
وليكن غدُنا حاضراً معنا
وليكن حاضراً أَمسُنا معنا
وليكن يَوْمُنا حاضراً
في وليمة هذا النهار المُعَدِّ
لعيد الفراشة، كي يعبر الحالمون
من سماءٍ إلى أُختها ... سالمين

□

من سماءٍ إلى أختها يعبُرُ الحالمون...

قال المسافر للمسافر:
لن نعود كما ...

لا أَعرفُ الصحراءَ،
لكنّي نَبَتُّ على جوانبها كلاما...
قال الكلامُ كلامَهُ، ومضيتُ
كامرأةٍ مُطَلَّقةٍ مضيتُ كزوجها المكسورِ،
لم أَحفظْ سوى الإيقاعِ
أَسمعُهُ
وأَتبعُهُ

وأَرفعُهُ يماما
في الطريق إلى السماء،
سماءِ أُغنيتي،
أَنا ابنُ الساحلِ السوريِّ،
أَسكنُهُ رحيلاً أَو مُقاما
بين أَهل البحرِ،
لكنَّ السرابَ يشدُّني شرقاً
إلى البَدْو القُدامى،
أُوردُ الخيلَ الجميلةَ ماءَها،
وأَجسُّ نَبْضَ الأبجديَّةِ في الصدى،
وأَعودُ نافذةً على جِهَتَيْنِ...
أَنسى من أكونُ لكي أَكونَ
جماعةً في واحدٍ، ومُعَاصِراً
لمدائحِ البحَّارة الغُرباءِ تحت نوافذي،
ورسالةَ المتحاربينَ إلى ذويهِمْ:
لن نَعُودَ كما ذَهَبْنا
لن نَعُودَ ... ولو لماما!

لا أَعرفُ الصحراءَ،

مهما زُرْتُ هاجسَها،

وفي الصحراء قال الغَيْبُ لي:

أكتُبْ!

فقُلْتُ: على السراب كتابةٌ أُخرى

فقال: أكتُبْ ليخضرَّ السرابُ

فقُلْتُ: ينقُصُني الغيابُ

وقُلْتُ: لم أَتعلَّمِ الكلماتِ بَعْدُ

فقال لي: أُكْتُبْ لتعرفها

وتعرفَ أَين كنتَ، وأَين أنتَ

وكيف جئتَ، ومَنْ تكونُ غداً،

ضعِ اسْمَكَ في يَدِيْ واكْتُبْ

لتعرف مَنْ أَنا، واذهبْ غماما

في المدى ...

فكتبتُ: مَنْ يكتُبْ حكايته يَرِثْ

أَرضَ الكلام، ويمْلُكِ المعنى تماما!

لا أَعرفُ الصحراءَ،

لكنني أُودِّعُها: سلاما

للقبيلةِ شَرْقَ أُغنيتي: سلاما

للسُلالة في تَعدُّدِها على سَيْفٍ: سلاما

لابنِ أُمِّي تحت نَخْلَتِهِ: سلاما

للـمُعَلَّقةِ التي حفظتْ كواكبنَا: سلاما

للشعوب تمرُّ ذاكرةً لذاكرتي: سلاما

للسلام عليَّ بين قصيدتينِ:

قصيدةٍ كُتبَتْ

وأُخرى مات شاعرُها غراما!

أَأَنا أنا؟

أَأَنا هنالك ... أم هنا؟

في كُلِّ «أَنتَ» أَنا،

أَنا أَنتَ الـمُخَاطَبُ، ليس منفى

أَن أكونَكَ. ليس منفى

أَن تكونَ أَنايَ أَنتَ. وليس منفى

أَن يكون البحرُ والصحراءُ

أُغنيةَ المسافرِ للمسافرِ:
لَنْ أَعودَ، كما ذَهَبْتُ،
ولن أَعُودَ ... ولو لماما!

قافية
من أجل المعلَّقات

ما دَلَّني أَحَدٌ عَلَيَّ. أَنا الدليلُ، أَنا الدليلُ
إليَّ بين البحر والصحراءِ. من لُغَتي وُلدتُ
على طريق الهند بين قبيلتَين صغيرتين عليهما
قَمَرُ الديانات القديمةِ، والسلامُ المستحيلُ
وعليهما أَن تحفظا فَلَكَ الجِوار الفارسيِّ
وهاجسَ الروم الكبيرَ، ليهبط الزمن الثقيلُ
عن خيمة العربيِّ أَكْثَرَ. من أَنا؟ هذا

سؤالُ الآخرين ولا جوابَ له. أَنا لُغَتي أَنا،
وأَنا مُعَلَّقَةٌ... مُعَلَّقتان... عَشْرٌ، هذه لغتي
أَنا لغتي. أَنا ما قالتِ الكلماتُ:
كُنْ
جَسَدي، فكُنْتُ لِنَبْرِها جَسَداً. أَنا ما
قُلْتُ للكلمات: كُوني ملتقى جَسَدي مع
الأَبديَّة الصحراءِ. كُوني كي أكونَ كما أَقولُ!
لا أَرضَ فوق الأرض تحملني، فيحملني كلامي
طائراً متفرّعاً مني، ويبني عشّ رحلته أَمامي
في حُطامي، في حطامِ العالم السحريِّ من حولي،
على ريحٍ وَقَفْتُ. وطالَ بي ليلي الطويلُ
... هذه لغتي قلائد من نُجومٍ حول أَعناقِ
الأحبَّة: هاجروا
أَخذوا المكان وهاجروا
أَخذوا الزمان وهاجروا
أَخذوا روائِحَهُمْ عَنِ الفخّارِ
والكَلأِ الشحيح، وهاجروا
أَخذوا الكلامَ وهاجَرَ القلبُ القتيلُ

مَعَهُم. أَيتَّسعُ الصدى، هذا الصدى،
هذا السرابُ الأبيضُ الصوتيُّ لاسمٍ تملأُ
المجهولَ بُحّتُهُ، ويملأهُ الرحيلُ أُلوهةً؟
تَضَعُ السماءُ عليَّ نافذةً فأنظرُ: لا
أَرى أَحداً سوايَ...
وجدتُ نفسي عند خارجها
كما كانت معي، ورؤايَ
لا تنأى عن الصحراء،
من ريحٍ ومن رملٍ خُطَايَ
وعالمي جَسَدي وما مَلَكَتْ يدايَ
أَنا المسافر والسبيلُ
يُطلُّ آلهةٌ عليَّ ويذهبون، ولا نُطيل
حدِيثَنا عمّا سيأتي. لا غَدٌ في
هذه الصحراء إلاّ ما رأينا أَمس،
فلأرفعْ مُعَلَّقتي لينكسرَ الزمانُ الدائريُّ
ويُولَدَ الوقتُ الجميلُ!
ما أكْثَرَ الماضي يجيء غداً
تركتُ لنفسها نفسي التي امتلأتْ بحاضرها

وأَفرغني الرحيلُ
من المعابد. للسماءِ شعوبُها وحرُوبها
أَمَّا أَنا، فلِيَ الغزالةُ زوجةً، ولِيَ النخيلُ
معلقات في كتاب الرمل. ماضٍ ما أَرى
للمرء مملكَةُ الغُبار وتاجُهُ. فلتنتصرْ
لُغَتي على الدَهْر العَدُوِّ، على سُلالاتي،
عليَّ، على أَبي، وعلى زَوَالٍ لا يزولُ
هذِهِ لُغَتي ومُعْجِزَتي. عصا سِحْري.
حدائقُ بابلي ومسَلَّتي، وهويتي الأُولى،
ومعدَنِي الصقيلُ
ومقدَّسُ العربيِّ في الصحراءِ،
يعبُدُ ما يسيلُ
من القوافي كالنجوم على عَبَاءَتِهِ،
ويعبُدُ ما يقولُ

لا بُدَّ من نثرٍ إذاً،
لا بُدَّ من نَثْرٍ إلهيٍّ لينتصِرَ الرَسُولُ...

الدوري، كما هو كما هو...

حَيْرَةُ التقليد: هذا الغَسَقُ المُهْرَقُ
يَدْعُوني إلى خِفَّته خلف زُجاجِ
الضوءِ. لم أَحْلُمْ كثيراً بكَ، يا
دوريُّ. لم يحلُمْ جناحٌ بجناحٍ...
وكلانا قَلَقٌ

□

لَكَ ما ليس لِيَ: الزُرْقَةُ أُنثاكَ
ومأواكَ رجوعُ الريح للريح،

فحلِّقْ! مثلما تعطشُ فيَّ الروحُ
للروح، وصَفِّقْ للنهارات التي ينسجها
ريشُكَ، واهجرني إذا شئتَ
فَبيْتي، ككلامي، ضَيِّقُ

□

يألَفُ السَقْفَ، كضيفٍ مَرِحٍ، يألَفُ
حَوْضَ الحَبَقِ الجالسَ، كالجَدَّة، في
نافذةٍ... يعرف أَين الماءُ والخبزُ،
وأَين الشَرَكُ المنصوبُ للفأر...
ويهتزُّ جناحاهُ كشالِ امرأة تفلت منا،
ويطيرُ الأزرقُ...

□

نَزِقٌ مِثْلِيَ هذا الاحتفالُ النَزِقُ
يخمش القلب ويَرْمِيهِ على القشّ،
أَما من رَعْشَةٍ تمكُثُ في آنيةِ
الفضّة يوماً واحداً؟
وبريدي فارغٌ من أَيِّ مَلْهاةٍ،

ستأتي، أيها الدوريُّ، مهما
ضاقتِ الأرضُ وفاضَ الأُفُقُ

□

ما الذي يأخذُهُ مني جناحاكَ؟
توتُّرٌ، وتبخُّرٌ كنهارٍ طائشٍ
لا بُدَّ من حبَّة قمح ليكون
الريشُ حُرّاً. ما الذي تأخذُهُ منك
مراياي؟ ولا بُدّ لروحي مِنْ
سماء، ليراها المُطْلَقُ

□

أَنتَ حُرٌّ. وأَنا حُرٌّ. كلانا يَعْشَقُ
الغائبَ. فلتهبطْ لكي أَصعَدَ. ولتصْعَدْ
لكي أَهبط. يا دوريُّ! هَبْني جَرَسَ
الضوء، أَهبْكَ المنزلَ المأهولَ بالوقتِ.
كلانا يُكْمِلُ الآخَرَ،
ما بين سماءٍ وسماء،
عندما نفترقُ!

V
مطر فوق برج الكنيسة

هيلين، يا لَـهُ من مطر

إِلتقَيتُ بهيلينَ، يَوْمَ الثلاثاءِ
في الساعة الثالثةْ
ساعةِ الضَجَر اللانهائيِّ،
لكنَّ صَوْتَ المَطَرْ
مَعَ أُنثى كهيلينَ
ترنيمةٌ للسَفَرْ

مَطَرٌ،
يا لَهُ من حنينٍ ... حنينِ السماءِ

إلى نفسها!
مَطَرٌ،
يا لَهُ من أَنينٍ ... أنينِ الذئابِ
على جِنْسها!

مَطَرٌ فوق سقف الجفافِ،
الجفافِ المُذَهَّبِ في أَيْقُونات الكنائسِ،
ـ كم تَبْعُدُ الأرضُ عنّي؟
وكَمْ يبعُدُ الحُبُّ عنكِ؟
يقولُ الغريبُ لبائعة الخبز، هيلينَ،
في شارعٍ ضَيِّقٍ مثل جَوْرَبها،
ـ ليس أكثرَ من لَفْظَةٍ... ومَطَرْ!

مَطَرٌ جائعٌ للشَجَرْ ...
مَطَرٌ جائعٌ للحَجَرْ ...

ويقولُ الغريبُ لبائعةِ الخبز:
هيلينُ هيلينُ! هل تصعَدُ الآنَ

رائحةُ الخبز منكِ، إلى شرفةٍ
في بلادٍ بعيدةْ ...
لتنسخَ أَقوالَ «هُومِيرَ»؟
هل يصعَدُ الماءُ من كتفَيْكِ إلى
شَجَرٍ يابسٍ في قصيدةْ؟

تقول لَهُ: يا لَهُ مِنْ مطرْ
يا لَهُ مِنْ مَطَرْ!

ويقولُ الغريبُ لهيلينَ: يَنْقُصُني
نَرْجِسٌ كي أُحَدِّقَ في الماءِ،
مائِكِ، في جَسَدي. حَدِّقي أَنتِ
هيلينُ، في ماء أَحلامنا... تَجِدي
الميتين على ضَفَّتَيْك يُغَنُّون لاسْمِكِ:
هيلينُ... هيلينُ! لا تتركينا
وَحِيدين مِثْلَ القَمَرْ

ـ يا لَهُ من مَطَرْ

يا لَهُ من مطرْ

ويقولُ الغريبُ لهيلينَ: كُنْتُ أُحاربُ
في خَنْدَقَيْكِ، ولم تَبْرَئي من دمي
الآسْيَوِيِّ. ولن تبرئي من دمٍ
مُبْهَمٍ في شرايين وَرْدِكِ. هيلينُ!
كَمْ كانَ إغريقُ ذاك الزمانِ قُسَاةً،
وكم كان «أُوليسُ» وَحْشاً يُحِبُّ السَفَرْ
باحثاً عن خُرَافَتِهِ في السَفَرْ!

الكلامُ الذي لم أَقُلْهُ لها
قُلتُهُ. والكلامُ الذي قُلْتُهُ
لم أَقُلْهُ لهيلينَ. لكنَّ هيلينَ
تعرفُ ما لا يقولُ الغريبُ...
وتعرفُ ماذا يقول الغريب لرائحةٍ
تتكسَّرُ تحت المَطَرْ،
فتقول لَهُ:
حَرْبُ طروادةٍ لم تَكُنْ

لم تكن أَبداً
أبداً ...
يا لَهُ مِنْ مطرْ
يا لَهُ من مَطَرْ!

ليلٌ يفيض من الجَسَد

ياسمينٌ على لَيْلِ تَمّوزَ، أُغْنيَّةٌ
لِغَريبَيْنِ يلتقيانِ على شارعٍ
لا يؤدّي إلى هَدَفٍ ...
مَنْ أَنا بعد عينينِ لوزيَّتينِ؟ يقول الغريبْ
مَنْ أَنا بعد منفاكَ فيَّ؟ تقولُ الغريبةْ.
إذنْ، حسناً، فلنَكُنْ حَذِرَيْنِ لئلا
نُحرِّكَ مِلْحَ البحار القديمةِ في جَسَدٍ يتذكَّرُ...
كانت تُعيدُ لَهُ جَسَداً ساخناً،
ويُعيدُ لها جَسَداً ساخناً.

هكذا يتركُ العاشقانِ الغريبانِ حُبَّهما
فَوْضَويّاً، كما يتركان ثيابَهما الداخليَّةَ
بين زُهور الملاءات...
ـ إن كُنْتَ حقاً حبيبي، فألِّفْ
نشيدَ أَناشيدَ ليْ، واحفُرِ اسمِي
على جِذْع رُمَّانةٍ في حدائِقِ بابلَ...
ـ إن كُنْتِ حقاً تُحِبِّينَني، فَضَعي
حُلُمي في يديَّ. وقولي لَهُ، لابنِ مريَمَ،
كيف فَعَلْتَ بنا ما فعلتَ بنفسِكَ،
يا سيِّدي، هل لدينا من العَدْل ما سوف يكفي
ليجعلنا عادلين غداً؟
ـ كيف أُشفى من الياسمين غداً؟
ـ كيف أُشفى من الياسمين غداً؟
يُعْتِمانِ معاً في ظلالٍ تشعُّ على
سقف غُرْفَتِهِ: لا تكُنْ مُعْتِماً
بَعْدَ نهديَّ ـ قالت له ...
قال: نهداكِ ليلٌ يُضيءُ الضروريَّ
نهداكِ ليلٌ يُقَبِّلُني، وامتلأنا أَنا

والمكانُ بليلٍ يَفيضُ من الكأسِ ...
تَضْحَكُ من وَصْفِهِ. ثم تضحك أكثرَ
حين تُخَبِّيءُ مُنْحَدَرَ الليل في يدها...
ـ يا حبيبيَ، لو كان لي
أَنْ أَكونَ صَبيّاً... لكُنْتُكَ أَنتَ
ـ ولو كان لي أنْ أكونَ فتاةً
لكنتُكِ أَنتِ!...
وتبكي، كعادتها، عند عَوْدَتِها
من سماءٍ نبيذيّةِ اللون: خُذْني
إلى بَلَدٍ ليس لي طائرٌ أَزرقٌ
فوق صَفْصَافِهِ يا غريبُ!
وتبكي، لتَقْطَعَ غاباتِها في الرحيلِ
الطويلِ إلى ذاتها: مَنْ أَنا؟
مَنْ أَنا بعد مَنْفاكَ في جَسَدي؟
آه منّي، ومنكَ، ومن بلدي
ـ مَنْ أَنا بعد عينين لوزيَّتين؟
أَرِيني غَدِي!...
هكذا يتركُ العاشقانِ وداعَهُما

فَوْضويّاً، كرائحةِ الياسمين على ليل تمُّوزَ...
في كُلِّ تمُّوزَ يَحْملُني الياسمينُ إلى
شارعٍ، لا يؤدِّي إلى هَدَفٍ،
بَيْدَ أَني أُتابعُ أغنيّتي:
ياسمينٌ
على
ليل
تمّوز ......

للغجريّة، سماء مُدَرَّبة

تَتْرُكِينَ الهواءَ مريضاً على شَجَر التوتِ،
أَمّا أَنا
فسأمشي إلى البحر كيف أَتنفَّسْ
لماذا فَعَلْتِ بنا ما فَعَلْتِ ... لماذا
مَلَلْتِ الإقامة، يا غجريَّةُ،
في حارة السَوْسَنةْ؟

□

عِنْدَنا ما تُريدينَ مِنْ ذَهَبٍ ودمٍ

طائشٍ في السّلالات. دُقّي بكَعْبِ حذائكِ
أَيقونَةَ الكون تهبطْ إليك الطيورُ. هناك
ملائكةٌ... وسماءٌ مُدرَّبةٌ، فاصْنَعي ما
تشائين! دُقّي القلوب ككسّارة الجوز
يَبْزُغْ دَمُ الأَحصنةْ!

□

لا بلادَ لشعرِكِ. لا بيْتَ للريح. لا
سَقْفَ لي في ثُرَيّاتِ صَدْرِكِ. من لَيْلَكِ
ضاحِكٍ حول لَيْلِكِ أسْلُكُ دَرْبَ
الشُعَيْرات وحدي. كأنّكِ مِنْ صُنْعِ
نَفْسِكِ، يا غجريّةُ،
ماذا صَنَعْتِ بصلصالنا منذ تلك السَنَةْ؟

□

تَرْتَدِينَ المكانَ كما ترتدينَ سراويلَ نارٍ
على عَجَلٍ. لا وظيفةَ للأرض تحت يديكِ
سوى الالتفاتِ إلى أَدوات الرحيل: خلاخيلَ

للماءِ. جيتارة للهواء، وناي لتبتعدَ
الهندُ أكثرَ. يا غجريَّةُ لا تتركينا كما
يتركُ الجيشُ آثارَهُ المُحْزِنَةْ!

□

عندما، في نواحي السنونو، هبطتِ علينا
فَتَحْنا على الأبديَّةِ أَبوابَنا صاغرين. خيامُك
جيتارةٌ للصعاليك. نعلو ونرقص حتى مغيب
الغروب المُدَمَّى على قَدَمَيْكِ. خيامُك
جيتارةٌ لخيول الغُزاة القدامى تَكرُّ
لتصنع أُسطورَةَ الأمكنةْ

□

كُلَّما حَرَّكَتْ وَتَراً مَسَّنا جنُّها. وانتقلنا
إلى زَمَنٍ آخر. وكَسَرْنا أَباريقنا، واحداً
واحداً، لنُصاحِبَ إيقاعَها. لم نَكُنْ طيِّبينَ
ولا سيِّئينَ، كما في الروايات. كانت
تُسَيِّرُ أَقدارنا بأصابعها العَشْرِ،

دندنةٌ ... دندنةْ!

□

غيمةٌ، حَمَلَتْها اليماماتُ من نومنا
هل تعودُ غداً؟ لا. يقولون: لا
ترجِعُ الغجريَّةُ. لا تَعْبُرُ الغجريَّةُ في بَلَدٍ
مَرَّتين. فمن سيزفُّ، إذاً، خَيْلَ هذا
المكانِ إلى جِنْسِها؟ من يُلمِّعُ مِنْ
بعدها فِضَّةَ الأمكنةْ؟

تمارين أُولى على جيتارة إسبانية

جيتارتانْ
تَتَبادَلانِ مُوَشَّحاً
وتُقَطِّعانْ
بحريرِ يَأْسهما
رُخامَ غيابنا
عن بابنا،
وتُرَقِّصانِ السنديانْ

□

جيتارتانْ ...

□

أَبديَّةٌ زَرْقاءُ تحملُنا،
وتسقُطُ غيمتانْ
في البحر قُرْبَكِ،
ثم تصعَدُ مَوْجَتانْ
فَوْقَ السَلالم، تَلْحَسَانِ خُطاكِ
فوقَ، وتُضْرِمانْ
مِلْحَ الشواطىء في دمي
وتُهَاجرانِ
إلى غيوم الأُرجوانْ!

□

جيتارتانْ ...

□

الماءُ يَبْكي، والحَصَى، والزعفرانْ

والريحُ تبكي:
«لم يَعُد غَدُنا لنا ...»
والظلُّ يبكي خَلْفَ هِسْتِيرْيا حصانٍ
مَسَّهُ وَتَرٌ، وضاقَ به المَدَى
بين الـمُـدَى والهاويةْ،
فاخْتَار قَوْسَ العُنْفُوانْ

□

جيتارتانْ ...

□

أُغنيَّةٌ بيضاءُ للسمراءِ،
ينكسرُ الزمانْ
ليمُرَّ هَوْدَجُها على جَيْشَينِ:
مِصْرِيٍّ، وحِثّيٍّ
ويرتفعُ الدخانُ
دخانُ زِينَتها المُلَوَّنُ
فوق أَنقاض المكانْ ...

□

جيتارتانْ ...

□

لا شيءَ يأخُذُ مِنْكِ أَندَلُسَ الزمانِ
ولا سَمَرْقَنْدَ الزمانْ
إلاّ خُطى النَهَوَنْدِ:
تلكَ غزالةٌ سَبَقَتْ جنازَتَها
وطارتْ في مَهَبّ الأُقحوانْ
يا حُبُّ! يا مَرَضِي المريضَ
كفى، كفى!
لا تَنْسَ قَبْرَكَ مَرَّةً أُخرى
على فَرَسي،
ستذبحُنا هنا جيتارتانْ

□

جيتارتان ...
جيتارتان ...

أيَّام الحُبِّ السبعة

الثلاثاء: عنقاء

يكفي مُرورُكِ بالألفاظ كي تَجِدَ

العنقاءُ صُورَتَها فينا، وكي تَلِدَ

الروحُ التي وُلدتْ من روحها جسدا...

لا بُدَّ من جَسَدٍ للروح تُحْرِقُهُ

بنفسها ولها، لا بُدَّ من جَسَدٍ

لتُظْهرَ الروحُ ما أَخفتْ من الأَبدِ

فلنحترِقْ، لا لشيءٍ، بل لنتَّحِدا!

الأربعاء: نرجسَة

خمسٌ وعشرون أُنْثى عُمْرُها. وُلدتْ
كما تريدُ... وتمشي حول صُورَتِها
كأنها غيرُها في الماء: ينقُصُني
ليلٌ... لأركض في نَفْسي. وينقصني
حُبٌّ لأَقفز فوق البرج... وابتعَدَتْ
عن ظلِّها، ليمُرَّ البرقُ بينهما
كما يمرُّ غريبٌ في قصيدتِهِ...

الخميس: تكوين

وجدتُ نَفْسِيَ في نفسي وخارجها
وأَنتِ بَيْنَهُما المرآةُ بينهما...
تَزُورُكِ الأرضُ أَحياناً لزينتها
وللصُعود إلى ما سَبَّبَ الحُلُما.
أَمَّا أَنا، فَبِوُسْعِي أَنْ أكونَ كما
تَرَكْتِني أَمسِ، قُرْبَ الماء، مُنْقَسِما
إلى سماءٍ وأرضٍ. آهِ... أَين هُما؟

الجمعة: شتاء آخر

إذا ذَهَبْتِ بعيداً، عَلِّقي حُلُمي
على الخزانة ذكرى مِنْكِ، أَو ذكرى
منّي. سَيَأتي شتاءٌ آخرٌ، وأَرى
حمامَتَيْنِ على الكُرسيِّ، ثُمَّ أَرى
ماذا صَنَعْتِ بِجَوْزِ الهند: من لُغتي
سالَ الحليبُ على سُجَّادة أُخرى

إذا ذهبتِ، خُذي فصل الشتاء، إذاً!

السبت: زواج الحمام

أُصْغِي إلى جَسَدي: للنَخْلِ آلِهَةٌ

وللصهيل رَبَاباتٌ بلا عَدَدِ

أَنا السحابُ، وأَنتِ الأرضُ، يُسْنِدُها

على السياج أَنينُ الرَغْبَة الأَبدي

أُصْغي إلى جَسَدي: للموت فاكِهَةٌ

وللحياةِ حياةٌ لا تُجَدِّدُها

إلاّ على جَسَدٍ... يصغي إلى جَسَدِ

الأَحد: مَقَامُ النَهَونْد

يُحبُّكِ، اقْتَرِبي كالغَيْمَةِ... اقترِبي
مِنَ الغريب على الشُبَّاك يجهش بي:
أُحِبُّها. انْحَدِري كالنجمة... انْحَدِري
على المُسَافر كي يبقى على سَفَرِ:
أُحبُّكِ. انْتَشِري كالعَتْمة... انتشري
في وردة العاشق الحمراء، وارْتَبِكي
كالخيمة، ارتبكي، في عُزْلَةِ المَلِكِ...

الاثنين: مُوَشَّح

أَمُرُّ باسْمِكِ، إذْ أَخلُو إلى نَفَسِي
كما يَمُرُّ دِمَشْقِيٌّ بأَنَدَلُسِ

هنا أَضاءَ لَكِ الليمونُ مِلْحَ دَمِي
وههنا، وَقَعَتْ ريحٌ عن الفَرَسِ

أَمرُّ باسْمِكِ، لا جَيْشٌ يُحاصِرُني
ولا بلادٌ. كأنِّي آخرُ الحَرَسِ
أَو شاعرٌ يَتَمشَّى في هواجسِهِ...

VI
أغلقوا المشهد...

شهادة من برتولت بريخت
أمام محكمة عسكرية
(١٩٦٧)

سيِّدي القاضي!
أَنا لستُ بجنديٍّ،
فماذا تطلبون الآنَ منِّي؟
وأَنا لا شأنَ لي في ما تقولُ المحكمةْ،
ذَهَبَ الماضي إلى الماضي سريعاً...
دون أَن يسمَعَ منِّي كَلِمَةْ.

مَضَتِ الحربُ إلى المقهى لترتاحَ...
وطيَّارُوكَ عادوا سالمينْ
والسماءُ انكسرتْ في لُغَتي، يا سيِّدي
القاضي ـ وهذا شأنيَ الشخصيُّ ـ
لكنَّ رعاياكَ يجرُّون سمائي خلفهُمْ ... مبتهجينْ
ويُطلُّون على قلبي، ويرمون قشورَ الموزِ
في البئر. ويمضون أَمامي مسرعينْ
ويقولونَ: مساء الخير، أَحياناً،
ويأتونَ إلى باحة بيتي... هادئينْ
وينامُونَ على غَيْمةِ نَوْمي ... آمنينْ
ويقولون كلامي نفسَهُ،
بَدَلاً مني،
لشُبَّاكي، وللصيف الذي يَغْرَق عطرَ الياسمينْ
ويُعيدون منامي نفسَهِ،
بَدَلاً منِّي،
ويبكون بعينيَّ مزاميرَ الحنينْ
ويُغنُّون، كما غنَّيْتُ للزيتونِ والتينِ
وللجزئيِّ والكُلِّيِّ في المعنى الدفينْ.

ويعيشون حياتي مثلما تعجبُهُمْ،
بَدَلاً مني،
ويمشون على اسمي حَذِرينْ ....
وأَنا، يا سيِّدي القاضي هنا
في قاعة الماضي، سجينْ
مَضَتِ الحربُ. وضُبّاطُكَ عادوا سالمينْ
والكرومُ انتشرتْ في لغتي، يا سيِّدي
القاضي ـ وهذا شأنِيَ الشخصيُّ ـ إِنْ
ضاقتْ بيَ الزنزانةُ امتدَّتْ بِيَ الأرضُ،
ولكنَّ رعاياكَ يجُسُّون كلامي غاضبينْ
ويَصيحُون بآخابَ وإِيزابيلَ: قُوما، وَرِثا
بستانَ نابوتَ الثمين!
ويقولون: لنا اللهُ
وأَرضُ الله
لا للآخرينْ!
ما الذي تطلبه، يا سيدي القاضي،
من العابر بين العابرين؟
في بلادٍ يَطْلُبُ الجلاّدُ فيها

من ضحاياهُ مديحَ الأَوسمةْ!
آنَ لي أَن أَصرُخَ الآنَ
وأَن أُسْقِطَ عن صوتي قناعَ الكَلِمَةْ:
هذه زنزانةٌ، يا سيِّدي، لا مَحْكَمةْ
وأَنا الشاهدُ والقاضي. وأَنت الهيئةُ المُتَّهمَةْ
فاتركِ المقعَدَ، واذهب: أَنتَ حُرٌّ أَنتَ حُرٌّ،
أيها القاضي السجَينْ
إنَّ طياريكَ عادوا سالمينْ
والسماءَ انكسرتْ في لُغَتي الأُولى ـ
وهذا شأنِيَ الشخصيُّ ـ كي يرجِعَ
موتانا إلينا ـ سالمينْ!

خلاف، غير لُغوي، مع امرىء القيس

أَغلقوا المَشْهَدَ
تاركين لنا فُسْحَةً للرجوع إلى غَيرنا
ناقصينَ. صَعَدْنا على شاشة السينما
باسمينَ، كما يَنْبَغي أَن نكونَ على
شاشة السينما، وارْتَجَلْنا كلاماً أُعِدَّ
لنا سَلَفاً، آسفين على فُرْصَةِ
الشُهَداءِ الأخيرةِ. ثم انْحَنَيْنَا نُسَلِّمُ

أَسماءَنا للمُشَاة على الجانبين. وَعُدْنا
إلى غَدِنا ناقصينْ...

□

أَغلقوا المَشْهَدَ
انتصروا
عَبَرُوا أَمسَنا كُلَّهُ،
غَفَرُوا
للضحيَّةِ أخطاءَها عندما اعتَذَرَتْ
عَنْ كلامٍ سيخطُرُ في بالها،
غيَّروا جَرَسَ الوقتِ
وانتصروا...

□

عندما أَوْصَلُونا إلى الفَصْلِ قبل الأخيرِ
التَفَتْنَا إلى الخلف: كان الدخانُ
يُطِلُّ مِنَ الوقت أَبيضَ فوق الحدائق
من بَعْدنا. والطواويسُ تنشُرُ مروحةَ

اللون حول رسالة قَيْصَر للتائبينَ
عن المُفْرَدات التي اهترأَتْ. مثلاً:
وَصْفُ حُرّيَّةٍ لم تجدْ خُبْزَها. وَصْفُ
خُبْزٍ بلا مِلْحِ حُرّيَّةٍ. أَو مديحُ حمامٍ
يطيرُ بعيداً عن السُوقِ...
كانت رسالةُ قَيْصَرَ شمبانيا للدخانِ
الذي يتصاعَدُ من شُرْفَةِ الوقت
أَبيض ...

□

أَغلقوا المَشْهَدَ
انتصروا
صَوِّروا ما يريدونَهُ من سماواتنا
نجمةً .. نجمةً
صَوِّروا ما يريدونه من نهاراتنا
غيمةً غيمةً،
غَيِّروا جَرَسَ الوقتِ
وانتصروا ...

□

إلتفتنا إلى دَوْرِنا في الشريط المُلَوَّنِ،
لكننا لم نَجِدْ نجمةً للشمال ولا خيمةً
للجنوب. ولم نَتَعَرَّفْ على صوتنا أَبداً.
لم يكن دَمُنا يتكلَّمُ في الميكروفونات في
ذلك اليوم، يَوْمَ اتَّكأْنا على لُغَةٍ
بَعْثَرَتْ قلبها عندما غيَّرتْ دَرْبَها. لم
يَقُلْ أَحدٌ لامرىء القيسِ: ماذا صنعتَ
بنا وبنفسكَ؟، فاذهبْ على درب
قَيْصَرَ، خلف دُخانٍ يُطلُّ مِنَ
الوقت أَسْوَدَ. واذْهَبْ على درب
قَيْصَرَ، وَحْدَكَ، وَحْدَكَ، وَحْدَكَ
واتركْ لنا، ههنا، لُغَتَكْ!

مُتَتاليات
لزمن آخر

كانَ يوماً مُسْرِعاً. أَنصتُّ للماءِ
الذي يأخُذُهُ الماضي ويمضي مُسْرِعاً،
تَحْتَ،
أَرى نفسيَ تَنْشَقُّ إلى اثنينِ:
أَنا،
واسمي ...

□

لكي أَحلُم لا يلزمُني شيءٌ: قليلٌ
من سماءٍ لزياراتي سيكفي لأَرى
الوقتَ خفيفاً وأَليفاً
حَوْلَ أَبراج الحمامْ

□

وقليلٌ من كلام الله للأَشجارِ
يكفيني لكي أَبنيَ بالألفاظِ
مأوى آمناً
للكراكيِّ التي أَخطأها الصيَّادُ ...

□

كَمْ كان على ذاكرتي أَن تحفَظَ
الأسماءَ. كَمْ أَخطأتُ في تَهْجِيَةِ
الأَفعال. لكنْ هذه النجمةُ من
صُنْعِ يدي فوق الرخامْ ...

□

كان يوماً مُسْرِعاً. لم يَعْتَذِرْ
أَحَدٌ من أَحَدٍ فيه. ولم يسقُطْ
على الشارع غيمُ الشجر العالي
ولم يَلْمَعْ دَمٌ فوق الكلامْ

□

كلُّ شيءٍ هادئٌ في مُلْتَقَى البَحْرَينِ
لا تاريخَ للأيام منذ اليوم،
لا موتى ولا أَحياءَ. لا هُدْنَةَ،
لا حَرْبَ علينا أَو سلامْ

□

وحياتي في مكانٍ آخرٍ. ليس مُهِمّاً
وَصْفُ مقهى وحوارٍ بين شُبَّاكَيْنِ
مَهْجُورَيْنِ. أَو وَصْفُ خريفٍ يمضَغُ
العِلْكَةَ في هذا الزحامْ

□

... ولكي أَحلُمَ لا يلزَمُني بَيْتٌ
كبيرٌ. فقليلٌ من نُعاس الذئبِ
في الغابة يكفي لأرى، فوقَ،
سماءً لزياراتي...

□

حياتي في مكانٍ آخرٍ. ليس مُهمّاً
أَن تراها بنتُ جنكيزخانَ في سروالها
أَو يراها قارئٌ تدخُلُ في المعنى
كما يدخُلُ حبرٌ في الظلامْ

□

كان يوماً مُشرِعاً. والغَدُ ماضٍ
قادمٌ من حفلة الشاي. غداً كُنّا!
وكان الأمبراطورُ لطيفاً معنا. كنا
غداً... نشهَدُ تدشينَ الزُكامْ ...

□

كُلٌّ شيء هادئٌ. ليس مُهمّاً
وَصْفُ حدَّادينَ لم يُصْغُوا إلى
التانْجو، ولا موتى ينامون، كما
ناموا ولم يَعْتَذِروا للسيد التاريخ...

□

كي أَحلُم، لا يلزمُني لَيْلٌ كهذا...
وقليلٌ من سماءٍ لزياراتي، سيكفي
لأرى الوقتَ خفيفاً،
وأَليفاً،
وأَنام ...

... عندما يبتعد

للعدُوِّ الذي يشربُ الشايَ في كوخنا
فَرَسٌ في الدخانِ. وبنْتٌ لها
حاجبانِ كثيفانِ. عينانِ بُنّيتان. وشَعْرٌ
طويلٌ كَلَيْلِ الأغاني على الكَتِفَيْنِ. وصورَتُها
لا تفارقُهُ كُلَّما جاءنا يطلُبُ الشايَ. لكنَّهُ
لا يُحَدِّثُنا عن مشاغلها في المساء، وَعَنْ
فَرَسٍ تَرَكَتْهُ الأَغاني على قمَّة التلِّ.../

٥

... في كوخنا يستريحُ العَدُوُّ من البُندقيّة،
يتركُها فوق كُرسيِّ جَدِّي. ويأكُلُ من خبزنا
مثلما يفعَلُ الضيفُ. يغفو قليلاً على
مقعد الخَيْزَرانِ. ويحنُو على فَرْوِ
قِطَّتنا. ويقولُ لنا دائماً:
لا تلوموا الضحيَّةَ!
نسألُهُ: مَنْ هِيَ؟
فيقولُ: دَمٌ لا يُجَفِّفُهُ الليلُ.../

○

... تلمعُ أزرارُ سُتْرَتِهِ عندما يبتعدْ
عِمْ مساءً! وسَلِّمْ على بئرنا
وعلى جِهَةِ التين. وامشِ الهُوَيْنَى على
ظلِّنا في حقول الشعيرِ. وسَلِّمْ على سَرْونا
في الأعالي. ولا تَنْسَ بوَّابةَ البيتِ مفتوحةً
في الليالي. ولا تَنْسَ خَوْفَ
الحصان من الطائراتِ،
وسَلِّمْ علينا، هُنَاكَ، إذا اتَّسَعَ الوقتُ.../

○

هذا الكلامُ الذي كان في وُدِّنا
أَن نَقولَ على الباب... يَسْمَعُهُ جيِّداً
جيِّداً، ويُخَبِّئُهُ في السُعَال السريعِ
ويُلْقِي به جانباً.
فلماذا يزورُ الضحيَّةَ كُلَّ مساءٍ؟
ويحفَظُ أَمثالَنا مِثْلَنا،
ويُعيدُ أَناشيدَنا ذاتها،
عن مواعيدنا ذاتها في المكان المُقدَّسِ؟
لولا المسدسُ
لاختلطَ النايُ في النايِ .../

○

... لن تنتهي الحربُ ما دامتِ الأرضُ
فينا تدورُ على نفسها!
فلنَكُنْ طَيِّبين إذاً. كان يسأَلُنا
أَن نكونَ هنا طَيِّبينَ. ويقرأُ شِعراً
لطيّار «ييتْس»: أَنا لا أُحبُّ الذينَ
أُدافعُ عنهُمْ، كما أَنني لا أُعادي

الذينَ أُحاربهُمْ...
ثم يخرجُ من كوخنا الخشبيِّ،
ويمشي ثمانينَ متراً إلى
بيتنا الحجريِّ هناك على طَرَفِ السَهْلِ.../

○

سَلِّمْ على بيتنا يا غريبُ.
فناجينُ
قهوتنا لا تزال على حالها. هل تَشُمُّ
أَصابعَنَا فوقها؟ هل تقولُ لبنتك ذاتِ
الجديلةِ والحاجبينِ الكثيفينِ إنَّ لها
صاحباً غائباً،
يتمنَّى زيارَتَها، لا لِشيْءٍ...
ولكنْ ليدخل مِرْآتَها ويرى سِرَّهُ:
كيف كانت تُتَابعُ من بعده عُمْرَهُ
بدلاً منه؟ سَلِّمْ عليها
إذا اتَّسَعَ الوقتُ.../

○

هذا الكلامُ الذي كان في وُدِّنا
أَن نقولَ له، كان يسمعُهُ جيِّداً
جَيِّداً،
ويُخبِّئُهُ في سُعَالٍ سريعٍ،
ويُلْقِى به جانباً، ثم تلمَعُ
أزرارُ سُتْرَتِهِ عندما يَبْتَعِدْ...

للشاعر

شعر:
- أَوراق الزيتون
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حبيبتي تنهض من نومها
- العصافير تموت في الجليل
- أُحبك، أو لا أُحبك
- محاولة رقم ٧
- تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق
- أَعراس
- مديح الظل العالي
- حصار لمدائح البحر
- هي أُغنية، هي أُغنية
- ورد أَقل
- مأساة النرجس، ملهاة الفضة
- أَرى ما أُريد
- أَحد عشر كوكباً
- ديوان محمود درويش [جزآن]

نثر:
- شيء عن الوطن
- وداعاً أيتها الحرب،
- وداعاً أيها السلام
- يوميات الحزن العادي
- ذاكرة للنسيان
- في وصف حالتنا
- عابرون في كلام عابر
- الرسائل [بالاشتراك مع سميح القاسم]

هذا الكتاب

من جديد، في «لماذا تركت الحصان وحيداً» مثلما كان الحال في معظم المجموعات والقصائد الجديدة، يفي محمود درويش بشروط تعاقد ثنائي شاق بقدر ما هو خلاق:

١ ـ تعاقد مع مشروع شعري فذّ يتطور على نحو مدهش منذ أكثر من عقدين، وترتقي أطواره وفق دينامية جدلية متصاعدة وتصعيدية تذهب من مشقة صناعة وتجديد الأدوات التعبيرية، لكي تصل إلى مستويات خلاّقة وعميقة في برنامج إبداعي مفتوح النهايات لا يستقر على حال عند بلوغه نهاية طور، أو هو يتوقف أساساً لكي ينطلق بصواب وثبات، بعيداً عن سكون الطور وقريباً من خطوة التطوير التالية.

٢ ـ تعاقد مع قارىء عنيد عريض، واعٍ ومرهف ومتطلّب، يتماهى بقوة مع برهة السكون الدرويشية تلك لأنه يجد فيها ملاذاً (في المشهد الشعري العربي الراهن المأزوم) وإدماناً وإشباعاً، فيتشبث بها ويستدخلها في وعيه الشعري كخاتمة قصوى مشتهاة لهذا المشروع الشعري القلق أبداً. لكنه قارىء رفيع الاستجابة لأنه يسارع إلى استقبال أعراف وأنظمة التغيير المحتومة، ولا يتردد طويلاً قبل أن يبحث عن ـ ويجد مكانه في ـ خطوة التطوير التالية ، بعد أن استدخل برهة/ برهات التوقف السابقة واستكمل مع محمود درويش أوالية المعادلة الضرورية بين النص والحياة، بين الشعر العظيم وذائقته الجمعية.

في هذه المجموعة، الجديدة على المشهد الشعري العربي بأسره، يذهب محمود درويش نحو السيرة: سيرة المكان حين تحتويه الجغرافيا لكي ينبسط فيه التاريخ، وسيرة مواقع المكان حين تنقلب إلى محطات للجسد وعلامات للروح وتصنع ـ بالتالي ـ صيغة ملحمية فريدة لسيرة ذاتية كثيفة تتحرك في فضاء لا كأي فضاء، وتمسح الزمان من ارتفاع عن الطير، ثم تختصر عناصرها في رحلة ارتداد نحو قطب صانعٍ ومشارك وضامن هو آدمي تراجيدي، ولكنه... شاعر في يده غيمة. وللمرء أن يستذكر، هنا تحديداً، ما كتبه إدوارد سعيد عن محمود درويش: «الشعر عند درويش لا يقتصر على تأمين أداة للوصول إلى رؤية غير عادية، أو إلى كون قصي من نظام متعارف عليه، بل هو تلاحم عسير للشعر وللذاكرة الجمعية، ولضغط كل منهما على الآخر».

صبحي حديدي


185513263X